المكتبة الثقافية

نشأة الصحافة العربية بالإسكندرية

١٨٧٣ - ١٨٨٢ م

بقلم

عبد العليم القباني

الهيئة المصرية العامة للكتاب

المكتبة الثقافية
٢٩٥

نشأة الصحافة العربية بالإسكندرية

١٨٧٣ - ١٨٨٢ م

بقلم
عبد العليم القبانى

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدى القارىء

قبل أن نبدأ معا هذه المسيرة . التى نحاول أن نتعرف فيها على نشأة صحافتنا العربية بالاسكندرية ، ونلم بجهود أولئك الذين أقاموا بناءها ، وحتى لا يتشعب بنا الطريق ، أو يمتد فى غير داع ؛ فقد رأيت أن أحدد مجال هـــذا البحث ؛ بالفترة من سنة ١٨٧٣ تاريخ انشاء أول جريدة عربية بالاسكندرية ؛ حتى سنة ١٨٨٢ حيث وقع الاحتلال البريطانى ؛ فتوقفت الصحف الوطنية لعدة سنوات .

ومن ثم ــ قمت فى هذه الصفحات ــ التى أقدمها بين يديك على استحياء ــ بعرض موجز للصــحف والصحفيين بالاسكندرية ، الذين اشتركوا فى ابراز دور المدينـــة فى المسافة الزمنية التى أشرت اليها ... مع لمحات تصـــور الظروف والبيئة التى أحاطت بالصحافة خلالها ، ونمـاذج

موجزة من كتاباتهم ، يمكن أن تلقى بعض الضوء على العصر وما كان يدور فيه .

وقد حاولت خلال هذا العرض - أن أخلص كثيرا من الشخصيات التى اشتركت فى صنع هذه الفترة ؛ من سمات ألصقها بهم المادحون بغير حق ؛ والكارهون بلا مبرر ... على أنى لم ألق القول فى هذه المحاولة على عواهنه ؛ بل رجعت الى ما خيل الى أنه أقرب المراجع الى معرفة الحقيقة؛ ووازنت بين أقوالها ، وأشرت الى المرجع الذى استقيت منه مادة هذا الحديث ، عند نقلى لكل خبر أو رأى ، باذلا فى ذلك أقصى ما أستطيعه من جهد وصبر وأناة ؛ ذلك حتى يمكن أن تقترب هذه الصور التى أردت اظهارها ؛ من الكمال ؛ فى حدود الحيز المقدر لهذا الكتاب ...

أما عن صحف الاسكندرية ؛ وصحفييها بعد هذه الفترة ، فاننا نرى ذلك موضوعا آخر ، نرجو أن نوفق الى الكتابة فيه أن شاء الله .

والله وحده الموفق ، ومنه نستمد العون ؟
الاسكندرية

عبد العليم القبانى

الفصل الأول

بداية الطريق

* يقظة الاسكندرية
* أبناء الشام بالمدينة
* صحافة القاهرة فى ذلك الوقت
* النواة :

سليم حموى وصحفه

١ = الكوكب الشرقى

٢ = شعاع الكوكب

٣ = الاسكندرية

٤ = الفلاح

* المراجع المحال اليها فى هذا الفصل

١ ـ يقظة الاسكندرية :

ما ان اقترب القرن التاسع عشر من اشراقة الضحى؛ حتى استيقظت « الاسكندرية » ونفضت عنها خمول نومة طالت ثلاثة قرون أو تزيد ...

وكانت يقظتها هذه نتيجـــة لمجموعـة عوامل توالت تباعا ، ومن ثم انطلقت المدينة في سباق مع الزمن ، لتدرك مسيرة الحضارة في العالم ، وكانت قد تجاوزتها بشــوط بعيد ...

ولعل أبرز هذه العوامل ، شـــق ترعه المحمودية ، وانشاء الميناء الغربي الكبير ، واقامة دور الصناعة المدنية والعسكرية ، وانشاء شركات الملاحة بقسميها النهـــرى والبحرى ، واتاحة الفرص العديدة ؛ لبيوت المال الأجنبية؛ لاستغلال أموالها في التجارة والصناعة بالمدينة ، واهتمـام الدولة بشق الطرق العامة ، والشوارع الجديدة ، والميادين الواسعة ، ومد الخط الحديدى بين القاهرة والاسكندرية ؛ وما تبع ذلك كله ؛ وبسببه ؛ من رواج اقتصادى . شارك في الرواج الذى أحدثته زراعة القطن وتجارته وقد بلغـا القمة وقتئذ بسبب توقف الانتاج الامريكى .

كل ذلك كان سببا مباشرا في تدفق الألوف من الناس

من خارج القطر ومن داخله ، على المدينة المفتحة الأبواب ، حتى ارتفع عدد سكانها ، من ثمانية آلاف فى بداية القرن المذكور ، الى أكثر من مائة وخمسين ألفا ، على مدى نصف قرن من الزمان • (١)

***

٢ ـ أبناء الشام بالمدينة :

وكان من بين هؤلاء الوافدين ؛ أعداد كبيرة من اخواننا « أبناء الشام » ؛ وبخاصة من اللبنانيين الذين يحسنون ـ بطبيعتهم ـ السباحة فى مثل هذا البحـــر ، ولم تكن وفادتهم هذه ؛ بجديدة علينا • فان الصلة بيننا وبينهم ، تضرب بجذورها فى أعماق التاريخ ، لكن وجود هذه الفرص زادتهم اغراء بالحضور لاغتنامها ؛ وأبرزت لهم من الوسائل؛ ما يسهل بها وصولهم الى أهدافهم ؛ التى منها الكســـب الوفير ، وبالتالى المعيشة المرفهة ، ومن ثم أقبلوا أفواجا ؛ وفى حقائبهم مشاريع عديدة ، تعين كلهـــا على الاثراء ؛ والافادة من هذه السوق التى لا تخضع لكثير من القيـــود التى تفرضها القوانين على أمثالها •

وليس من شأننا هنا أن نتحدث ـ بتوسع ـ عن وجوه النشاط الاقتصادى ؛ أو الاجتماعى التى أسهم فيها الأخــوة أبناء الشام بالاسكندرية ـ فى ذلك الوقت ـ اذ أن الحديث

ـ فى هذا الكتاب ـ مقصور على النشاط الصحفى بالمدينة ولذلك نكتفى هنا بهذه الاشارة (٢) •

٣ ـ صحافة القاهرة فى ذلك الوقت :

ولقد كان لبعض هؤلاء الأخوة من أبناء الشام ؛ سابق معرفة بالصحافة ، فمن المعروف أن الصحافة العربية ـ غير الرسمية ـ صدرت فى « بيروت » قبل « القاهرة » ببضعة أعوام * ومن هنا فكر أصحاب الميول الصحفية منهم فى غرس بذور الصحافة بالمدينة ، ولم تكن «القاهرة» وقتئذ قد سبقتها بكثير ؛ اذ لم يصدر بها حتى ذلك الوقت اذا استثنينا جرائد الحملة الفرنسية ـ وهى موقوتة بها ـ غير الوقائع المصرية ١٨٢٨ وهى جريدة الدولة الرسمية و « الجورنال الجمعي » ١٨٤٩ وهو نشرة رسمية كانت تهتم بالانشاءات الحكومية ، وقد ماتت بموت « ابراهيم باشا » و « الصحيفة العسكرية » ١٨٦٥ ولاسمها دلالة عليها ؛ ومجلة « أركان حرب الجيش » ١٨٧٣ وهى كسابقتها • وان تميزت بنشر بعض المواضيع العامة التى تهم الجمهور ؛ والتى هى ـ فى الوقت نفسه ـ ذات صلة

* صدرت « صحيفة الأخبار » لخليل الخورى ببيروت ١٨٥٨ ونفيرسوريا لبطرس البستانى ١٨٦٠ •

بالعسكرية ، ومجلة « يعسوب الطب » ١٨٦٣ وهى طبية خالصة ؛ وجريدة « وادى النيل » القديمة ١٨٦٧ وهى أولى الجرائد بالذكر ، لأنها صدرت عن الشعب ، وكان محررها « عبد الله أبو السعود » من كبار المترجمين فى عصره ؛ ثم « نزهة الأفكار » ١٨٦٩ « لابراهيم المويلحى ومحمـــد عثمان جلال » ولم يصـــدر منها غير عددين واحتجبت ، ثم مجلة « النحلة الحرة » ١٨٧٠ ولم يصدر منها الا بضـعة أعداد ؛ ثم رحل بها صاحبها « القس لويس صابونجى » الى « لندن » ليصدرها من هناك ؛ وأخيرا مجلة « روضـة المدارس » ١٨٧٠ التى أصدرها « على مبارك » وحررهـا « رفاعة رافع » وابنه « على فهمى » وهى من المجلات الأدبية ذات المكانة فى تاريخنا الصحفى ٠٠ (٣)

تلك هى الصـحف التى صـــدرت بالقاهرة ، قبل أن تبدأ « الاسكندرية » مسيرتها الصحفية ؛ ويلاحظ أن خمسا منها تتسم بالطابع الرسـمى والتخصصى ، واثنتين توقفتا عن المسير ؛ واثنتين تستحقان أن توضـــعا فى الحساب ٠

* * *

٤ = النواة = سليم حموى وصحفه :

(أ) الـكوكب الشرقى (ب) شـــعاع الـكوكب ٠
(ج) الاسكندرية (د) الفلاح ٠

وكان أن أصدر « سليم الحموى » العدد الأول من أول جريدة سكندرية باسم « الكوكب الشرقى » فى اليوم السادس من أغسطس ١٨٧٣ وهو اليوم الذى يمكن اعتباره تاريخا لمولد الصحافة العربية بالاسكندرية ؛ ونحن لا نعرف شيئا يمكن أن يكون فيه غناء ؛ عن هذه الصحيفة ، ولا عن النهج الذى سلكته ، اذ أنها لم تعش الى الحد الذى يمكن الباحث من الحكم عليها ؛ كما لا يوجد بأى من مكتبات الاسكندرية ، الخاصة والعامة ؛ عدد واحد منها ؛ حتى يمكن استشفاف نهجها عن طريقه .

والذى نعلمه عن « سليم الحموى » أنه كان مواطنا من أبناء سوريا ، وأنه أصاب شيئا من الثراء ، فقد حصل على لقب « باشا » فيما بعد (٤) كما أنه كان مشجعا لذوى الميول الثقافية ، فقد أنشأ مكتبة عامة بالاسكندرية وألحق بها قاعة للمطالعة (٥) ؛ وأنه ـ فيما أخبرنى به بعض أدباء المدينة المعمرين ؛ كان شاعرا ، وأن له ديوانا مطبوعا ؛ وانى وان كنت لم أقرأ هذا الديوان ، الا أنى قرأت قصيدة له فى رثاء « توفيق باشا » (٦) .

ولعل هذه الميول أن تكون هى التى دفعته الى اصدار مجلة أدبية باسم « شعاع الكوكب » ؛ فى نفس العام الذى أصدر فيه صحيفته اليومية « الكوكب الشرقى » ، ولكنها ما لبثت أن توقفت هى الأخرى بعد بضعة أعداد ...

لكن الرجل لم يتوقف ؛ اذ عاوده حنينه الى الصحافة بعد أعوام خمسة ، فأصدر جريدته « الاسكندرية » التى عاونه فيها قريبه « عبده حموى » فى يوليو سنة ١٨٧٨ لكنه ـ فى هذه المرة ـ اتخذ لها منهجا سياسيا • جر عليه بعض المتاعب ؛ فقد انتقد فيها بعض تصرفات « اسماعيل » وكان الخديوى لا يطيق ذلك ، فأنذرتها الدولة ؛ ثم عطلتها شهرا ؛ ثم أوقفتها نهائيا •••

ومن المؤسف أننا لم نجد أثرا لأعداد هذه الصحيفة ولا تلخيصا شافيا لمحتوياتها فى أى من المكتبات التى قصدناها ، ولا فى أى مظنة خبر رجعنا اليها •••

ونعرف بعد ذلك ؛ أن « سليم حموى » أنشأ جريدة يومية سياسية أدبية سنة ١٨٨٦ وأنه أسماها «الفلاح » وأنه أصدرها بالقاهرة (٧) ، ومعنى ذلك أنه غادر الاسكندرية وانتقل الى العاصمة •

ومهما يكن من شيء ؛ فان مبادرة هذا الرجل فى ارتياد الحقل الصحافى بالمدينة ، واصراره على المضى فى أداء رسالته ، لجديرة بتقديرنا له ، وبأن تدفعنا لأن نوجه اليه تحيتنا بمناسبة العيد المئوى لانشاء الصحافة العربية بالاسكندرية •

تلك التى وضع نواتها ، يوم أن اطلع « الكوكب الشرقى » بسمائها فى اليوم السادس من أغسطس ١٨٧٣ •

مراجع هذا الفصل

(١) للتوسع راجع لمحة في تاريخ مصر لكلوت بك ترجمة محمد مسعود وتقويم النيل لأمين سامى باشا والجزء السادس من الخطط التوفيقية لعلى مبارك باشا .

(٢) للتوسع راجع «السوريون فى مصر» لالياس قرآلى و «السوريون فى مصر» لايلياس زاخورا .

(٣) للتوسع راجع تاريخ الصحافة العربية لفيليب طرازى وتاريخ تكوين الصحف المصرية لقسطاكى عطارة والجيش المصرى فى القرن التاسع عشر للدكتور محمد محمود السروجى (فصل الصحافة) .

(٤) ص ٢٤٧ جـ١ « مصر فى عصر اسماعيل » لايلياس الأيوبى .

(٥) الوقائع المصرية فى ٢٤ اكتوبر ١٨٧١ نقلا عن عبد الرحمن الرافعى فى عصر اسماعيل .

(٦) ديوان القول الحقيق فى رثاء الخديوى توفيق جمع عزيز زند

(٧) ص ٢٦٢ من تاريخ تكوين الصحف المصرية لقسطاكى عطارة .

الفصل الثانى

الأهرام - بالإسكندرية

* سليم وبشارة تقلا
* حرية للصحافة ٠٠ ولكن
* مولد « الأهرام »
* الوليد الجديد
* « صدى الأهرام »
* وجها لوجه امام اسماعيل + جريدتا «الوقت» و «حقائق الأخبار»
* «الأهرام» والثورة العرابية + جريدة «الأحوال»
* « الأهرام » والانجليز
* تعليق من « جمال الدين الأفغانى »
* وجهة نظر
* « الأهرام » بالقاهرة
* المراجع المحال اليها

● سليم وبشارة تقلا :

عندما قدم « سليم بن خليل تقلا » عن « كفر شيما » بلبنان ؛ الى « الاسكندرية » فى بداية سنة ١٨٧٥ كان قد أتم السادسة والعشرين من عمره ، الذى قضى زهرتـــه فى التدريس ونظم الشعر ؛ وتأليف وترجمة بعـــض الروايات ، وكتابة بعض التمثيليات المدرسية (١) ٠٠٠

مكث « سليم » بالمدينة غير بعيد ؛ ثم لحق به أخوه « بشارة » الذى له نفس ميوله والذى كان يصـــغره بأعوام ثلاثه ٠

وكان المشروع الذى يشغلهمـــا وقتئذ ؛ والذى دفعهما للسفر الى الاسكندرية ، يتلخص فى انشـــاء مطبعة وجريدة ؛ فى هذه المدينة المفتحة الأبواب ، والتى تفجرت فيهـــا ينابيع الثراء ، فاتســـعت لعدد كبير من مواطنيهم أبناء الشام الذين وفدوا اليها من قبل ٠

ولقد ساعدهما رأسمالهما ٠ وما يمتازان به من خبرة فى المجال الاقتصادى ، على تنفيذ الخطوة الأولى من المشروع فاقيمت المطبعة فى احدى حارات حى المنشية ، وأعـــدت لتنفيذ المطبوعات التجارية والأدبية (ولا تزال هـــذه الحارة تحمل اسم الأهرام الى اليوم) ٠

وظل الشقيقان يعملان فى استكمال المطبعة وتسيير دفتها قرابة سبعة أشهر ؛ ثم قاما بالخطوة التالية لمشروعهما ، فتقدم « سليم تقلا » الى الدولة بالتماس يطلب فيه التصريح باصدار جريدة اسمها « الأهرام » ٠

● حرية للصحافة ولكن ٠٠٠

كان ذلك فى أخريات عهد « اسماعيل » فى وقت كان القلق فيه يسيطر على أعصاب الجميع ، بسبب الانهيار المالى الذى تعرضت له البلاد ؛ من جراء اسراف الخديوى ؛ وعدم تقديره للأمور ، وكان تدخل الدولتين الأعظم وقتئذ « انجلترا وفرنسا » فى شئون البلاد لمصلحة الدائنين ؛ من الأسباب التى دفعت «باسماعيل» الى اطلاق حرية الصحافة — فى هذه الفترة — وتشجيع الصحفيين على الكتابة فى أضواء هذا التدخل والمطالبة بحق الشعب فى الرقابة على تصرفات الدولة ؛ بواسطة ممثليه من أعضاء مجلس شورى النواب ، ذلك حتى يجد « الخديوى » سنداً شعبيا يستطيع به أن يواجه هذه الدول ، بعد أن فقد كل ما يمكن أن يكون سندا له ؛ بما فى ذلك دولة « الخلافة » (تركيا) التى باتت تتمنى له السقوط العاجل ، بعد أن حصل من السلطان على كثير من الامتيازات ؛ التى أبعدته — الى حد كبير — عن الخضوع

لسلطانها (٢) وربما دار فى ظن « اسماعيل » أيامئذ ؛ أنه يستطيع أن يدفع عنه سيطرة الشعب ـ فيما بعد ـ بسهولة ؛ بينما هو لا يستطيع حراكا أمام سيطرة هؤلاء الأجانب وهو فى حالته تلك ...

... أباح « اسماعيل » للصحف أن تتحدث كما تشاء ، الا أن تتعرض لشخصه أو لسلوكه ؛ فذلك مايأباه كل الاباء ، ولهذا كانت حكومته تنظر بحذر ، الى الصحف العربية التى يمكنها مخالفة هذا الشرط ؛ وبخاصة بعد أن فقد قوته الباطشة ؛ وأصبح ضعيفا لا حول له ؛ أمام قوة هذه الدول الكبرى ...

ومن ثم فقد نظرت الدولة الى الطلب المقدم من «سليم تقلا » بشأن الترخيص له باصدار جريدة « الاهرام » بشىء من الريبة ... ذلك لأن الأخوين « تقلا » كانا قد تجنسا بالجنسية الفرنسية ، وأصبحا تحت حماية فرنسا .

* * *

● مولد الأهرام :

كان الملتمس الذى تقدم به « سليم تقلا » يحتوى على النهج الذى ستتبعه الجريدة فى حالة صدورها ، وحتى يكون لدينا بعض العلم بأسلوب الكتابة الى المسئولين

في ذلك العصر ، فاننا ننقل هذه الاسطر من ملتمســـه الذى يقول فيه :

« ان الجريدة الملتمس انشاها فى مدينة الاسكندرية تحتــوى على التلغرافات ، والمواد التجــارية والعلمية ، والزراعية ، والمحلية ، وكذا من المقاصد طبع بعض كتب ، كمقامات الحريرى وبعض ما يتعلق بالصرف والنحو واللغة والطب والرياضيات والأشياء التاريخية، والحكم والنوادر والأفكار والقصص الأدبية وما شاكل ذلك ، من الأشياء الجايز طبعها ، بدون أن أتعرض للدخول مطلقا فى الأمور « البولوتيقية » (السياسية) واذا وقع منى مخالفة ، أو أجريت طبع شيء لا يجوز طبعه ، فانى قابل كل ما يترتب على حسب قوانين المطبوعات ، كما أتعهد بأن كل ما يجرى طبعه ؛ أقدم من كل طبعة نسختين لنظارة الخارجية الجليلة، وبما أن المطبعة المقتضى طبع الكتب المذكورة فيهـا كاينة بجهة « المنشية » بالاسكندرية ، وأنها مطبعة حروف تحت اسم « مطبعة الأهرام » ثم توقيع « سليم تقلا » (٣) .

ومع ذلك وبرغم التعهد الواضح فى نهاية الملتمس وما حاوله « سليم » من بث روح الطمأنينة فى نفوس المسئولين . فقد تطلب الحرص أخذا وردا ووساطة من هنـا ومن هنـاك ؛ حتى وافق المسئولون وكتب « وزير الخارجية » الى « ولى النعم » خطابا يطلب فيه الموافقـــة ويعلن « عدم المعارضة للخواجة المذكور فى انشـــاء

المطبعة المحكى عنها على الوجه المتقدم ذكره •• افندم »
ثم توقيع ناظر الخارجية والتجارة وختمه وتاريخ ٢٩ ذو العقدة ١٢٩٢ ـ ٢٧ ديسمبر ١٨٧٥ (٣) على أن العدد الأول لم يصدر فعلا ، الا فى اليوم الخامس من أغسطس ١٨٧٦ ؛ وقد صدرت الجريدة أسبوعية فى أربع صفحات كل يوم سبت ، واختص « سليم » بتحرير المقالات المختلفة ، وادارة الجريدة من الناحية الأدبية ، بينما اختص « بشارة » بالترجمة عن الصحف الأجنبية ؛ والاتصال بالقنصليات ؛ والبيوت المسئولة لجمع الأخبار ؛ وبادارة الجريدة من الناحيتين التجارية ، والعملية ••

● الوليد الجديد :

قدمت « الاهرام » نفسها فى الصفحة الاولى من العدد الأول الى الجمهور بكلمة جاء فيها :

« •• هذا هو العدد الاول ، من السنة الأولى ، لجريدة الأهرام المرعية ، بعناية الحكومة السنية والمستعدة الاستعداد التام لأن تجعل من يتصفح صفائحها ؛ واثقا بما يطالعه ، لأنها تعانى البحث • لتقف على الفوائد الصحيحة ، فتوفى بحقوق الجرائد وتكسب قبول الجمهور ، والاستقبال شاهد •• فعلى أولى الغيرة والهمة ، مد يد المساعدة الأدبية ، المنتجة المادية ، وذلك

بالاقدام على الاشتراك فلا نبالى بالصعوبات الابتدائية كيف كانت ؛ وعلى الجمهور أن يلاحظ ، من عدد الى عدد، التقدم الذى يحدث بالتدريج ؛ فانه لمؤكد ان كل ابتداء صعب • وان ثبات البناء موقوف على رسوخ الاساس واحكامه ، فأملنا ألا نكتسب الملام ، ولكن • حسن القبول من العموم ، بعد الافتخار باكتساب الالتفات الشريف من حكومتنا السنية ، التى تبذل وسعها بنشر الافادة العمومية ، وتسهل للجميع سبيل النجاح ؛فحينئذ تحظى الأهرام برضاها ورضى الجمهور ؛ وتحل عندهم محل القبول •• » (٤)

وكان أن استقبلها الجمهور استقبالا ؛ لا بأس به ؛ باعتبارها وافدا جديدا ، فنظم بعض الشعراء قصائد فى مدحها ، وأتحفها بعض الادباء كذلك ؛ بعدد من التقاريظ •••

وعلى سبيل المثال نذكر أن الاستاذ الامام « الشيخ محمد عبده » وكان وقتئذ أحد مجاورى الازهر الشريف ، كتب تقريظا بالعدد الخامس منالاهرام ؛نقتطف منه هذه الفقرات التى جاءت بعد تمهيد طويل « •• فيالها من جريدة أسست قواعدها فى القلوب ، وامتدت مبانيها لكشف الغيوب ، تنادى بمقالها • وحالها • حى على الفلاح ، وهلموا الى موارد النجاح ، لا تقفوا عند صورة المبنى ، ولكن تجاوزوا عنه الى المعنى • تلك أهرام أشباح • وهذه غذاء أرواح • تلك مساكن أموات •

وهذه لسان سر السموات . وأين الذى تعفيه الرياح والأمطار ؛ من الذى لا توهنه توالى المدد والأعصار » (٤)

وقد أردف الشيخ « محمد عبده » مقالته هذه ، بأربع مقالات أخرى ؛ تحمل طابع التوجيه الفكرى ، كان لبعضها شكل الحوار ؛ وأسلوب السرد القصصى ؛ وقد مزج فيها بين الماضى والحاضر ، والدين والمنطق ؛ فى عبارات مسجوعة تماما ، فقد كان السجع وقتئذ هو الحلية التى يتفاضل بها الكتاب (٥)

* * *

● صدى الأهرام :

كانت « مصر » وقتئذ تابعة فى مشاعرها العامة لدولة الخلافة ، اذ كانت الجماهير العريضة تشايعها ، باعتبارها حامية لحمى الاسلام ، وبالتالى فهى ، تعادى من يعاديها ، وتصادق من يصادقها ، مساقة الى ذلك ، بدافع دينى ، كان له المقام الأول فى ذلك الوقت .

وكانت الحرب وقتذاك ؛ قائمة بين دول البلقان وروسيا من جهة ؛ وضد دولة الخلافة (تركيا) من جهة أخرى .

ولهذا كانت الجماهير متلهفة دائما ؛ لتلقى أنباء المعارك التى تدور رحاها بين الطرفين ، التى اشتركت ـ فى بعضها ـ قوات من الجيش المصرى ، مؤيدة للدولة العثمانية ، وكانت صحف ذلك العهد ، ولا سيما الاجنبية منها ؛ قد بدأت فى نقل أنباء هذه الحروب ؛ مظللة بآراء ناقليها ·· فكان حتما على الصحفى الذكى ؛ أن يستفيد من هذا الصراع ، عن طريق اشباع رغبات الجمهور المتلهف بمزيد من الانباء ، هذا الى جانب الظمأ المحرق الى معرفة ما كان يدور بالعالم أيا مئذ ؛ من أحداث سياسية واجتماعية وعلمية ، تمخضت عنها الحضارة الزاحفة فى الغرب ، التى تتجدد صورها كل يوم ، وكذلك الاحداث الداخلية اليومية التى شغف الناس بتتبعها ·

وكان أن أنشأ « سليم تقلا » جريدة يومية أسماها « صدى الاهرام » لتلاحق الناس بأنباء هذه الوقائع ؛فان أعصابهم لا تستطيع الصبر أسبوعا كاملا حتى تنشرها الأهرام لهم ، فتكون قد فقدت جدتها · وقد صدر العدد الأول من هذا « الصدى » فى اليوم العاشر من أكتوبر سنة ١٨٧٦ مكونا من أربع صفحات ، الأولى بها مقال افتتاحى يتحدث عن الموضوعات الخارجية ، والصفحة الثانية عن الحوادث الداخلية ، والثالثة عن الأخبار التجارية · والرابعة موقوفة على الاعلانات ، وقد كان هذا ، نهجها تقريبا فيما يتبع ذلك من أعداد ·· (٦)

● وجها لوجه أمام اسماعيل :
جريدتا الوقت وحقيقة الأخبار

وعلى الرغم من تعهد « سليم تقلا » بعدم اشتغال « الاهرام » بالسياسة ؛ كما هو واضح فى ملتمس الترخيص المقدم منه للدولة ؛ الا أن تجنس الاخوين (تقلا) بالجنسية الفرنسية ؛ وحماية فرنسا لرعاياها ، قد شجعتهما على العبث بهذا التعهد ، ومن ثم فقد اجترءا على نقد تصرفات « اسماعيل » بوضوح وعنف ، وبخاصة فى أيامه الأخيرة، بعد أن أنهكته الضربات المتوالية التى تلقاها من الدول الكبرى ؛ ففى ابريل سنة ١٨٧٩ كتبت « الاهرام » مقالا بلغت به قمة عنفها ؛ اذ اتهمت فيه « اسماعيل » شخصيا بسرقة أموال الدولة ، كما نشرت « صدى الأهرام » مقالا شديد اللهجة بعنوان « ظلم الفلاح » اتهمت فيه « اسماعيل » بنفس التهمة ؛ ولما أرسل « الخديوى » جنوده للقبض على « سليم تقلا » تصدى لهم أخوه « بشارة » فاقتاده الجند الى السجن ، ولكن « سليم » استعدى قناصل الدول على « اسماعيل » وفى مقدمتهم « قنصل فرنسا » ؛ ولم يستطع «الخديوى» — وموقفه كما بيناه — أن يتحدى القناصل ، فأمر بالافراج عن « بشارة » الذى لم يمكث فى السجن غير أيام ثلاثة ...

واكتفى « اسماعيل » بتعطيل « الاهرام » و «صداها» نعطيلا مؤقتا ، وقد كان تعطيلا شكليا ، اذ أصدر الأخوان في الحال جريدتي (الوقت) بدلا من « الاهرام » و (حقيقة الأخبار) بدلا من « صـــدى الاهرام » وتوقفت الجريدتان عن نقد « الخديوى » الى حين ، غير أن ذلك الحين لم يطل؛ فقد أقيل « اسماعيل » من منصبه ، تحت ضغط الدول الكبرى ؛ وموافقة الباب العالى ، فى الخامس والعشرين من يونيو ١٨٧٩ ؛ ومن ثم غادر البـــلاد على اليخت « المحروسة » الى « نابلى » بايطاليا ؛ فى اليوم الأخـــير من ذلك الشهر ...

ومن عجائب الاتفاق ، ان هذا اليخت هو الذى استقله حفيـــده « فاروق » الى « ايطاليا » عقب خلعه عن العرش فى اليوم السادس والعشرين من يوليو سنة ١٩٥٢ .

* * *

● الأهرام والثورة العرابية وجريدة الأحوال :

عين « محمد توفيق » خديويًا على مصر خلفا لأبيـــه « اسماعيل » الذى غادر البلاد منفيا على الصورة التى أسلفناها ، وكانت الاهرام قد عادت الى الظهور ، بعـــد فترة التعطيل التى مرت بها .

وكان هناك بين « توفيق » و « سليم تقلا » شيء من الصداقة ؛ ومن أجلها ـ فيما يبدو ـ التزمت «الاهرام» جانب الحذر ؛ بالنسبة لما كانت تكتبه عن الخديوى ؛ ثم كانت آن قررت فى اليوم الثالث من يناير سنة ١٨٨١ أن تصدر « يومية » بدلا من « أسبوعية » وأن يضاف الجانب السياسى بشكل واضح الى شعارها ؛ ومن ثم أصبح العنوان على الصورة التالية :

« الأهرام »

جريدة يومية سياسية تجارية أدبية فكاهية

أى بزيادة كلمتى « يومية و « سياسية » · ونشرت يومها مقالا افتتاحيا جاء فيه :

« ··· انها تعد بألا تخلع على أحد نفوذا ليس له ·· ثم لا مدح بلا حق ·· ولا طعن بلا مبرر »

وفى تلك الآونة أخذت نذر « الثورة العرابيـــة » تجتاح كل شيء ، معبرة عن رأى الجيش والشعب ، وعن تضامنهما معا ، فى محاولة للحصول على حياة أفضل ؛ فى ظل دستور يؤكد الحقوق للجميع ···

ثم توالت الاحداث بعد ذلك ·· الى أن ولى العرابيون زمام الحكم ؛ ولكن « الاهرام » لم تشايع هذا التيار ؛ فكان أن أصدر « عرابى باشا » أمرا فى أول يونيـــو ١٨٨٢ بتعطيل الاهرام شهرا « لعدم التعاطف الوطنى » غير أن صاحبيه كانا قد احتاطا للأمر ، واستصدرا تصريحا

مسبقا بانشاء جريدة أخرى لتقوم ـ بحسب تخطيطهما ـ « مقام الاهرام » فى حالة التعطيل ، وكان أن دفع الأخوان مائة ليرة قيمة التأمين المطلوب. ومن ثم صدر العدد الأول من هذه الجريدة المؤقتة باسم «الاحوال» مصدرا بمقال رئيسى يوضح منهاج الجريدة ، ويبين موافقة الحكومة على اصدارها ، غير أن الذى يلفت النظر فى هذا المقال ؛ هو عنوانه ، الذى فاق الحد فى طوله ؛ ونصه :

« ... يا محول الاحوال .. حول حالنا الى أحسن حال ؛ سبحانك ؛ ريحانك ، ما أعظم قدرتك وشانك ؛ تغير من حال الى حال ، ولا تتغير فى سائر الأحوال » (٧)

غير أن أحوال المدينة ؛ كانت أقسى من أن تتحملها هذه الجريدة ، اذ قامت « مذبحة الاسكندرية » ؛بتدبير من الاستعمار وأعوانه ، فى اليوم الحادى عشر من نفس الشهر « يونيو » واشتعلت من جرائها ثورة الجماهير الغاضبة ؛ حتى أحرقت « الاهرام » ومطبعتها ..

وكان أن انتقلت الجريدة ، وبقايا المطبعة الى دار أخرى ، بعد فترة من الزمن ، تم فيها احتلال الانجليز لمصر ودخل جيشهم القاهرة فى اليوم الخامس عشر من سبتمبر ١٨٨٢ . حيث استعرض خديوى مصر ، الجيش الانجليزى الغازى من فوق منصة يرفرف عليها العلم البريطانى ...

وفى اليوم التاسع والعشرين من ذلك الشهر ، نشرت « الأهرام » مقالا وصفت فيه « عرابى » بالعصيان ،

وأصحابه بالبغاة ؛ كما مدحت « سلطان باشا » قـائد الخيانة في هذه المأساة ؛ والجنرال « ولسلى » قائـــد جيش الاحتلال •• (٨)

● الأهرام والانجليز ••

لم يكن معنى هذا أن « الاهرام » أصبحت تشـــايع « الاحتلال البريطاني » لمصر ؛ أو حتى أصبحت محايدة ، لا يعنيها من الامر شيء ، وانمــــا هي فترة من الذهـــول الوقتي ، تغشـــت أغلب الناس ، فما عادوا يميزون بين شيء وشيء : وقد انهارت آمال جسام ؛ وتحطمت قيـم تعارف الناس على اجلالها . ولقــد ظل أكثرهم على هـــذا النمط من التشويش الفكرى ، حتى اذا ما انجلت الغشاوة وتكشف للناس طريقهم ، وعادوا ســـيرتهم الاولى ، عادت الأهرام ووقفت ــ بعد أن استتب الامر للانجليز ــ موقف المعارضة لانجلترا الناقدة لمسلكها ، الكاشفة عن أقنعتها؛ وقد بلغت قمة هجومها في مقال نشر يوم ١١ من أغسطس ١٨٨٤ اتهمت فيه حكومة « مصر » بأنها تخدم « انجلترا» دون أن توجه أى جهد لخدمة وطنها ؛ وهذا المقال عبارة عن رسالة من «بشارة تقلا » بعث بها من « لندن » أثناء مرافقته للوفد الممثل لمصر ، في المؤتمر الخاص بالمسألة المالية المصرية الذى عقد هناك • فاستغرق أشهر يونيـو

ويوليو وأغسطس سنة ١٨٨٤ دون أن ينتهى الى شيء ٠٠ (٩)

وقد تضمنت الرسالة حوارا ، دار ، بين « بشارة » وأحد المفاوضين المصريين ؛ حيث قال هذا العضو « ٠٠ انه يجب على المصريين أن لا ينسوا جميل السير بارنج (كرومر فيما بعد) لأنه دافع عن حقوقهم ؛ كمدافعته عن حقوق بلاده ، أما أنا ورفيقى ؛ فلا فضل لنا ، لأننا أجرينا ما تقتضيه وظيفتنا » ، ثم يذكر « بشارة » أن بعض أعضاء المؤتمر الذين حضروا هذا الحديث ؛ سأل هذا المتحدث قائلا :

« أفدنى ، كم كلمة لفظها السير بارنج أيها العضو المصرى فى جلسة اليوم ؟ » ٠

فصمت العضو المذكور ؛ ثم أردف السائل قائلا « انه لولا السير بارنج لأمكن اتفاق المؤتمر على مايناسب مصلحة مصر والدائنين ، ولم تصل الى حالتها المعلومة الا بسوء سياسة من تمتدحه ٠٠ » (١٠) وبعد حوار (ذكره بشاره) مع العضو المصرى قال له « ٠٠ واعلم يا باشا ؛ يا مندوبا عن مصر ، أن عدم نجاحك فى مسألة تخفيض الضرائب ٠ لم يسببه الا كونك آلة فى يد السير بارنج ، أو لأنك ذو مبادىء انجليزية ؛ وكان الاولى لمصر أن تنتدب عمدة مصرية تأتى بزيها المعلوم ؛ فلو أنها أجرت ذلك ؛ لأكسبت بلادها جزيل الفائدة ، ولكن ما العمل ؟ فان أسيادك الانجليز ، ورجال مصر الذين هم

آلة فى أيديهم ؛ عارضوا الخواطر الوطنية ؛ فكـــانت النتيجة ما تعلم .. » (١٠)

وكان أن صدر أمر بتعطيل « الاهرام » هذا نصه :

« .. نظرا لأن جريدة الأهرام ، نشرت جملة مواد سياسية من شأنها خدش سلطة واعتبار الحكومة الخديوية، ونظـــرا لأن العـــدد الصـــادر من هـــذه الجـريدة فى ١١ أغسطس ١٨٨٤ نشر فيه مراســـلة من لندن من هذا القبيل ، أشد طعنا مما سبق نشره ؛ ونظرا لأن مثل هذه الجمل ، مع ما عليه حالة القطر الحاضرة ؛ وحـــالة الافكار ، يعد مخلا للنظام العمومى ؛ تغلق جريدة الاهرام شهرا من تاريخ إعلان صاحبها .. » (١١) وقد نفـــذ هذا الأمر فى ٢٠ من سبتمبر ١٨٨٤ ...

● تعليق من الأفغانى

وكان ان زار فريق من أعيان البلاد ؛ ادارة الجريدة عقب صدور هذا القرار ؛ معبرين عن تقديرهم للقائمين على سياسة « الاهرام » وقدم الوفد الى رئيس التحرير ، هدية رمزية ، عبارة عن « ســـاعة من الذهب » تعبيرا عن مشاعرهم نحو الجريدة (١٢) .

بينما علق السيد « جمال الدين الافغانى » وتلميذه الشيخ « محمد عبده » فى مقال لهما * نشراه بمجـــلة

« العروة الوثقى » التى كانا يصـــدرانها بباريس أيامئذ على هذا التعطيل جاء فيه :

« .. اشتد غضب نوبار باشـــا (رئيس الوزراء يومئذ) على جريدة الاهرام فأصدر أمره بتعطيلها شــهرا وقفل مطبعتها ، وقيل فى السبب، انها نشرت رسائل مدير الجريدة وهو فى لندن ،.على ما فيها من بيان بعض مساوىء السياسة الانجليزية على خلاف رغبة الباشا !! وقيل ان السبب (هو) نشر الشكر الذى قدم الى المدير والمحرر من أعيان البلاد ، دلالة على استحسان مشرب الجريدة **

(الذى هو) استقباح سياسة الانجليز ، ولكن كتب الينا من مصدر خاص ، ان هذه المسائل العمومية لا تهم نوبار باشا الا اذا مست مصلحته الخاصة ...

ان الأهرام وصفت رياض باشا وشريف باشـــا بالوطنية وعلو الهمة ؛ ونوبار باشا ،أبعد الناس عن هذين الوصفين ، ولهـــذا كلما ذكرا فى جانب أى شـــخص ، حسب نوبار ان فى الكلام تهكما عليه ، واستهزاء به ولا عجب ان ظن ما ظن ؛ أو فعل ما فعل ، فالرجل ليس بمصرى ولا عربى ولا مســـلم ، فاذا باع مصر بأبخس

---

* يقول الأستاذ أحمد أمين أن جميع ما نشر بالعروة الوثقى من أفكار للأفغانى ، وان صياغتها جميعا لمحمد عبده (١٣) وكذلك يقول محمود أبو ريه فى كتابه نقلا عن شكيب ارسلان (١٤) .

** هناك بيان بأسماء الذين وقعوا هذا الشكر ونصه .

الأثمان ؛ فهو الرابح لا خسر ملة ، ولا وطنا ؛ ولا جنسا .. الخ .. » (١٦)

والواقع ان هذا المقال ــ برغم تأويل الافغـــانى وصاحبه له ؛ قد كشف النقاب فعلا عن بعض تصرفات عملاء الانجليز ، وهبـــط بمركز حكومة « مصر » الى الحضيض أمام الشعب فى ذلك الوقت ؛ ومن ثم كانت ضرورة هذا التعطيل من وجهة نظر الحكومة ، التى لم تكن يومها مالكة لما تختار .

* * *

● وجهة نظر

على انه يؤخذ على « الاهرام » ــ فى ذلك الوقت ــ مشايعتها لفرنسا ؛ اذ كانت ترى انها الدولة الوحيدة التى نهضت وقتئـــذ للدفاع عن « مصر » ولم تلتفت « الاهرام » الى موقف « فرنسا » الاستعمارى من الشعوب التى كانت تئن تحت سيطرتها فى قارتى افريقيـــا وآسيا ...

ولقد أخذ عليها بعض الكتاب الموالين لبريطانيا هذا الموقف فكتب « ولى الدين يكن » * يقول : « ... وأمـا

* كاتب شاعر تركى عضو بجمعية تركيا الفتاة ومن أقرباء الأسرة الخديوية اشتغل بالصحافة وجاهر بعدائه للسلطان عبد الحميد فنفى

الأهرام فكان صاحباه محميين بقوة فرنسا ، فلم يريا من المروءة أن يخالفاها فى سياستها الاستعمارية ، ولم ينصفا الانجليز ؛ بل أصرا على حربهم ، ولم يذكرا للقوم (يقصد الانجليز) يدا وان جلت ؛ ولم يسترا لهم هفوة وان صغرت ٠٠ الخ ٠٠ » (١٧)

الأهرام بالقاهرة :

انتهت اقامة الاهرام بالاسكندرية ، ومن ثم ودع « بشارة تقلا » المدينة التى أثمرت فيها جهوده بكلمة نشرها فى الأهرام ٣١ من أكتوبر ١٨٩٩ جاء بهـا « تودع الاهرام اليوم ثغر الاسكندرية بعد أن قضت فى ظله ٢٥ عاما متقلبة فى نعمته ؛ متمتعة بحمايته ؛ فهى تبرحه الى عاصمة القطر مرتلة على أهله الكرام آيات الثناء ، داعية له ولهم ، بدوام التقدم فى مدارج العمران ومراتب العلاء ٠ فموعد القطر غدا بأهراميه : الأهرام طبعة القاهرة فى عاصمة البلاد السياسية ، والاهرام طبعة الاسكندرية فى عاصمة البلاد التجارية ٠٠ » على

الى سواس ويقول أنور الجندى أن نفيه هذا كان لتهمة اختلاس قام به ، اذ كان أمينا للجمارك (١١) فلما أفرج عنه عاد الى مصر واشتغل بالصحافة فيها دفاعا عن الحرية فيما لا يتعارض مع الاحتلال البريطانى!!

انه سرعان ما اندمجت الاهرام التجارية فى الأهـــرام السياسية وصدرتا معاً فى جريدة واحدة من القاهرة ٠

هذا وقد توفى « سليم تقلا » يوم ١١ من أغسطس ١٨٩٢ بينما توفى أخوه « بشارة » سنة ١٩٠١ بعـــد أن انتقلت « الاهرام » الى القاهرة لتواصل مسيرتهـــا الى الآن ؛ ولتصبح صحيفة «مصر » الاولى ؛ وأول الصحف العربية فى الشرق الاوسط مكانة وقدرة وانتشـــارا بحيث لا تكاد تصل الى مكانتها جريدة أخرى فى البلاد العربية بلا استثناء ٠٠٠

مراجع هذا الفصل

ملاحظة عامة :

أهم مراجع هـذا الفصل هو الكتاب القيم الذى وضـعه الدكتور ابراهيم عبده عن الأهرام فى ٧٥ سنة ونشرته المعارف سنة ١٩٥٠ ، ويمكن الرجوع اليه فيما لم أحدد مرجعه فى هذا البحث أو لمن يريد التوسع فى هذا الموضوع أما المراجع التى احلنا اليها فهاهى ذى :

(١) نبذة من ديوان سليم تقلا وبه مقدمة وافية عن حياته .

(٢) ص ٦٩ من كتاب ثورة ٢٣ يوليو وجذورها التاريخية للدكتور محمد محمود السروجي و ص ٢٦٤ و ٢٦٥ جـ١ من كتاب «عصر اسماعيل» لعبد الرحمن الرافعى و ص ١٦٠ جـ٢ من نفس المرجع و ص ٢٤٤ جـ١ من مصر فى عصر اسماعيل لالياس الأيوبى .

(٣) ص ٢٤ وما بعدها من كتاب تاريخ جريدة الأهرام للدكتور ابراهيم عبده .

(٤) ص ١٩٤ من نفس المصدر .

(٥) تحتل مقالات الشيخ محمد عبده فى الأهرام بما فيها هذا التقريظ الصفحات من ١٥ ـ ٤٨ من الجزء الثانى من تاريخ الأستاذ الامام لرشيد رضا .

(٦) من ٧١ ـ ٧٥ من تاريخ الأهرام .

(٧) ص ٨٥ من نفس المرجع .

(٨) ص ٣٩ تطور الصحافة العربية لأنور الجندى .

(٩) ص ٣٩٢ من تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر للدكتور أحمد أحمد الحته ٠

(١٠) ص ٢٠٣ و ٢٠٤ من تاريخ الأهرام ٠

(١١) ص ٢٠٥ من نفس المرجع ٠

(١٢) ص ٤٥٢ أعلام الاسكندرية لنقولا يوسف ٠

(١٣) ص ٨١ زعماء الاصلاح فى العصر الحديث لأحمد أمين ٠

(١٤) ص ١٠٣ الأفغانى حياته وسيرته لمحمود أبو ريه ٠

(١٥) ص ١٩٥ تاريخ الأهرام ٠

(١٦) ص ٣٨٨ ـ ٣٨٩ مجموعة مقالات العروة الوثقى ٠

(١٧) ص ١٢ المعلوم والمجهول لولى الدين يكن ٠

(١٨) ص ٣١٨ (الشبهات والأخطاء الشائعة لأنور الجندى مصر بدون تاريخ ٠

(١٩) ص ٦ من العدد الخامس من سنة ١٩٦٩ من مجلة الأديب مقال للأستاذ نقولايوسف عن الأهرام ٠

الفصل الثالث

جمال الدين الأفغاني

وأصابعه بالإسكندرية

* الأفغانى والاسكندرية
* جمال الدين الأفغانى ومصطفى رياض باشا
* الطريد يجد واحة أمان
* جمال الدين الأفغانى واسماعيل
* صحافة الأفغانى وخطة اسماعيل
* المراجع المحال اليها ..

● الافغاني والاسكندرية

الصلة بين « جمال الدين الأفغانى » والاسكندرية، صلة وثيقة ؛ وبخاصة فى الاعوام الاخيرة من اقامته بمصر ؛ اذ كانت ميدانا لنشر آرائه ؛ بما أوجد فيها من صحف تتحرك بسعيه ، وتتحدث بوحى منه ، وبما كان فيها من محافل فتحت أبوابها لاستقباله وبالجمعية السرية التى كونها بها تحت اسم « مصر الفتاة » وهى ؛ وان أحاط بها ما يحيط بالجمعيات السرية عادة من غموض * لكن الذى يعنينا هو أنها أنشأت باسمها جريدة سكندرية ، جريئة فى تعبيرها ؛ متطرفة فى دعوتها ؛ وان لم تعلن وقتئذ عن صلتها بسميتها السرية •

لذلك رأيت أن أستعرض — فى ايجاز — سيرة هذا الداعية ، منذ أن وفد الى « مصر » سنة ١٨٧١ حتى رحل عنها ١٨٧٩ لنستطيع أن ندرك بعض القيمة الحقيقية لهذا الرجل من جهة ؛ ومدى أثره فى صحافة الاسكندرية من جهة أخرى ، تاركا تفاصيل هذه السيرة والتعليق

---

* يقول الأستاذ الامام محمد عبده ان أغلب أعضاء هذه الجمعية كانوا من شبان اليهود •

عليها ؛ الى بحث آخر ؛ قمت بكتابته بعنوان « جمال الدين الافغانى فى مصر ·· نظرة موضوعية » ·

* * *

● جمال الدين الافغانى ومصطفى رياض

كان ذلك فى بداية العقد الثامن من القرن التاسع عشر ؛ عندما أخفق « جمال الدين الافغانى » ** فى أن يجد لدعوته آذانا مصغية فى تركيا واختلف مع شيخ المسلمين فيها ، فى أمور أنكرها عليه هذا الشيخ ·

وكان أن أخرج منها شبه مطرود (٤) وبتوجيه من بعض اخوانه هناك ـ فيما يقال ـ اتجه من الآستانة الى القاهرة ؛ ويبدو أن هذه كانت خطة مرسومة فقد استبقاه « مصطفى رياض باشا » بالقاهرة ، وأجرى عليه ـ بموافقة اسماعيل ـ مرتبا شهريا يستعين به على أداء رسالته (٥) وكان « رياض » قد التقى به من قبل فى الآستانة وتعرف عليه ···

** يقول الدكتور محمد محمد حسين الأستاذ بجامعة الاسكندرية ، ان جمال الدين الأفغانى ، لم يكن أفغانيا ولا سنيا وانما كان ايرانياً شيعيا (٢) وقد اتصل الأستاذ عبد الباسط محمد عوض بالسفارتين الأفغانية والايرانية للتحقق رسميا من أصل الأفغانى الاقليمى ، فكان ردهما : أنه ليس لدى أى منهما دليل يثبت تبعية الأفغانى لأى من الدولتين (٣) ·

وحتى تكون لدينا فكرة موجزة عن « مصطفى رياض» هذا ، نحب أن نثبت فيما يلي بعض الاحكام التى استخلصناها من دراسة لتاريخه ؛ والتى نترك للقارىء اختيار موقفه منها :

١ ـ ينتمي « رياض » ـ فيما يقال ـ الى عائلة يهودية بأزمير تسمى عائلة « الوزان » ووفد أبوه الى الاسكندرية حيث أسلم في ظروف لم يوضحها أحد كما انه التحق بوظيفة ذات صلة بالمال (٧) .

٢ ـ وأدخل « رياض » « المعزوزة » طفلا ؛ وهى مؤسسة ؛ قد يغضب الذين تخرجوا فيها ، اذا ذكرهم أحد بانتسابهم اليها فيما بعد (٨) .

٣ ـ ومن هذه المؤسسة التحق رياض بخدمة الحكومة مبيضا (نساخا) ثم في سلك الموسيقى وفى سن السادسة عشرة منح رتبة الملازم ، وبعد شهرين ، رقى الى رتبة اليوزباشي (نقيب) وبعد سنتين الى رتبة البكباشي (مقدم) وانتقل الى خدمة « عباس الأول » مباشرة فحصل على رتبة « قائمقام » (عقيد) وقبل أن يصل الى سن العشرين ؛ كان قد حصل على رتبة «أميرالاى » (عميد) وأصبح « مهر دار » لعباس الأول ثم مديرا للجيزة بالاضافة الى بعض أعمال أخرى ... ويرجع بعضهم هذه الحظوة التى نالها عند « عباس الأول » وهذه السرعة المذهلة فى الترقيات الى « تدنيه لأمور يلحق العار بمرتكبيها .. » (٩)

وقد تدرج بعد ذلك فى الوظائف العامة ؛ حتى بلغ مرتبة رئاسة الوزارة ، وأهم ما يذكر له بالخير فى فترة رئاسته ، هو سعيه فى محاولة ابطال الكرباج كوسيلة رسمية لتحصيل الضرائب من الفلاحين (١٠) ٠

٤ ــ كان عزل « رياض باشا » من رئاسة الوزارة : هو أحد المطالب التى تقدم بها العرابيون الى « الخديوى توفيق » فى بيان ٩ من سبتمبر ١٨٨١ ناسبين اليه الاستبداد وعدم الوطنية ٠

٥ ــ يقول لورد ملنر عن رياض « انه كان ذا كفاءة غريبة فى اثارة عداء الناس له ٠ انه أصبح مكروها عند الجمهور أكثر من نوبار باشا (١٠)

٦ ــ ويوجه اليه أمير الشعراء « أحمد شوقى » الخطاب عقب احدى سقطاته السياسية فيقول :

اذا ما لم تكن للقول أهلا
فما لك فى المواقف والكلام
لهجت بالاحتلال وما أتاه
وجرحك منه لو أحسست دام
وما أغناه عمن قال فيه
وما أغناك عن هذا الترامى (١١)

٧ ــ ويختلف رأى « الأفغانى » فى « رياض » عن آراء هؤلاء فيقول عنه :

« انه رجل ذو حياة وطنية ، هى أشرف أنواع الحياة (١٢) » ويزيد على ذلك فيقول :

« وكان أملنا أن يوجد من طرازه كثير فى الأقطار المصرية ٠٠ » (١٢) وهو أمل يشبه أمل « لورد كرومر » تماما حين قال عن « رياض » « انه (أى كرومر) يود لو يكثر فى مصر من أمثاله (١٠) ٠

ومن الغريب ان الأفغانى قال هذا الرأى بعد نفيه من مصر بستة أعوام ، أى بعد اتضاح الخط السياسى عند رياض تماما ؛ اذ نشره بمجلة العروة الوثقى التى أصدرها بباريس ١٨٨٤ ٠

٨ ــ بينما يرى الأستاذ الامام « محمد عبده » التلميذ الأول للأفغانى « أن « رياض » كان يمنح من يثق فيه كمال الحرية فيما يصنع ؛ لكنه لم تكن عنده قاعدة يبنى عليها هذه الثقة ، فتارة يثق بالأذكياء العارفين وتارة يثق بأضدادهم ٠٠ » (١٣)

٩ ــ أما « أديب اسحاق » التلميذ الثانى للأفغانى ؛ فقد سافر الى باريس ؛ وأصدر بها مجلة « القاهرة » وأوقفها على الطعن فى « رياض » وأسماه فى هذه المجلة « رياضستون » مجاراة لأسماء قادة الانجليز « غلادستون وبالمرستون » وغيرهما ٠٠ » (١٤) ٠

* * *

● الطريد يجد واحة أمان :

وبمساعدة من « رياض » هذا ، وجد الافغاني في « مصر » واحة أمان يستظل بأفيائها ومن ثم اتخذ من القاهرة ، دار اقامة ومركز دعوة ..

لكن وجهة نظره الدينية ؛ اصطدمت بوجهات نظر مشايخ الأزهر في ذلك الوقت ؛ ورأى بعضهم فيها خروجا على ما كان يراه السلف الصالح ، وأيا ما كانت الحقيقة في هذا الصراع فانهم منعوه من القائه لدروسه في رحاب الأزهر ، وكان على رأس المعارضين « الشيخ محمد عليش » امام المالكية في ذلك العصر الذي تربص له بعكازه اذا رآه (١٥) و « محمد عليش » هذا عالم من أصل مغربي سجنه الانجليز ـ فيما بعد ـ لاشتراكه في الثورة العرابية ويقال انهم دسوا له السم في الدواء الموصوف له فمات به شهيداً (١٦)

وكان أن اتخذ الافغاني مجلسه العلمي ؛ اما في داره التي اتخذها بحارة اليهود (١٧) أو على مقهى البوستة (متاتيا) بالعتبة الخضراء ، أو بالمحفل الانجليزي الماسوني ؛ ثم الفرنسي فيما بعد ، (١٨) حيث رأس الأول فترة من الزمن ؛ ثم انتقل الى الثاني وظل به حتى أخرج من مصر ، وقد بلغ من نفوذه في الفترة الثانية ؛ أن أغرى « محمد توفيق » وكان وليا للعهد أيامئذ بالانضمام الى المحفل الماسوني الفرنسي ؛ وقد فعل (١٩) ...

في هذه الأمكنة كان يجلس « الافغاني » ويجلس اليه طائفة من الشبان ، ذوى الافكار المتحررة ؛ بعضهم من طلاب الأزهر المتمردين على ما توارثوه من علم ، وبعضهم من الأخوة نصارى الشبام ؛ وبعضهم من غير هؤلاء وهؤلاء وجميعهم من الذين وجد فيهم « السيد » بذورا يمكن أن تنمو مشربة بأفكاره ، وأن تعمل على نشر آرائه اذا تعهدها برعايته ؛ وبث فيها من روحه ، وأقول مشربة بأفكاره هو فان مثقفى « مصر » ؛ كانوا قد عرفوا نهجا آخر من العلم غرسه « رفاعة رافع الطهطاوى » وتلاميذه ، لا أرى هنا مجالا لتفصيله (٢٠) ولهذا أستطيع أن أقول :

ان مصر ــ في ذلك العهد ــ لم تكن ليلا يبحث عن فجره ، وانها ظلت كذلك حتى جاءها « جمال الدين » كما يحاول الكثيرون تصويرها ؛ وانما كانت فجرا يبحث عن اشراقة الصباح ؛ ولم تلتق بالصباح المنشود عندما قدم الافغانى اليها وانما اقتربت منه خطوة واحدة على أحسن تقدير ·

***

● جمال الدين الأفغاني واسماعيل :

هكذا وفد « جمال الدين» الى مصر ؛ فاشتغل وشغل تلاميذه معه ببعض العلوم الفلسفية والدينية، التى تناولها

تناولا عصريا ؛ مزج فيه بين الماضى والحاضر ، بعيدا عن تحرج المحافظين من رجال الدين ، لا يغير من هذا المنهج شيئا (٢١) والسؤال الذى يطرح نفسه هو : ما الذى دعا الخديوى اسماعيل — وهو من هو طغيانا واستبدادا — أن يأذن لجمال الدين — وقد عرفت عنه انه أعلى الأصوات التى تطالب بالحرية — فى البقاء ؛ وبأن يجرى عليه ، رزقا غير مقطوع يتناوله فى مطلع كل شهر ؟ .

قد يقال أن « رياض باشا » هو الذى صنع ذلك والسؤال هنا .. هل يمكن لرياض — فى عصر اسماعيل — أن يفعل ذلك بدون موافقة اسماعيل » ؟

وهو سؤال لا يمكن أن يكون جوابه بالايجاب ؛ ومن ثم نعود الى السؤال الاول فنحاول الاجابة عليه بأن نقول :

ان شخصية « جمال الدين » العلمية سنة ١٨٧١ كانت أقوى من شخصيته السياسية التى لم تتضح — فى مصر — الا بعد مرور أعوام ستة من وفوده اليها .. (٢٢)

وهناك اعتبار آخر يمكن اضافته الى ما سبق ، وهو أن « اسماعيل » كان فى هذه الفترة ، منافسا لحكومة « الآستانة » ، وليس بخاف ما كان يبذله وقتئذ من مساع للانفصال بمصر عن « تركيا » ، وكيف كان يحاول أن يظهر للناس أن «مصر» متفوقة على «تركيا» حضاريا ...

وكان أن اغتنم فرصة نزول الأفغانى فى القاهـــرة مبعدا عن « الآستانة » ليعلن انه حامى العلم فىشخص ذلك المطرود ؛ وعندئذ ؛ ترى الدنيا أن مصر ملجأ للحكماء والعلماء حين تضيق عنهم « دار الخلافة » نفسها (٢٢) ونحن نعرف ان مصر استقبلت ــ فى ذلك العهد ــ كثيرين من أبنـــــاء الشرق العربى الذين فروا من ظلم حـكامهم الأتراك ٠

نقطة أخرى يمكن اضافتها الى ما تقدم ؛ تتلخص فى أن « اسماعيل » ــ فى هذه الفترة ــ كان أقوى من أن يأبه بالأفغانى السياسى ، أو بدعوته ؛ ما لم يمس شخصيا ؛ أو تمس تصرفاته (٢٣) ، وهو ما حرص « الأفغانى » على تجنبه طيلة معاصرته لعهد اسماعيل ؛ فلم يعرف عنـــه أنه هاجمه هجوما مباشرا (٢٤) ؛ وان تحدث كثيرا عن الظلم والاستبداد ؛ كما أن « الأفغانى » لم يواجه ــ من حكام مصر ــ بأى لون من ألوان الاساءة طيلة المدة التى قضاها فيها حتى نفى « اسماعيل » ؛ بل انه قام فى أخريات عهد اسماعيل بالسفارة بين أعضاء الحزب الوطنى (القديم) وبين الخــديوى ، عارضـا لوجهات نظـــر الفريقين (٢٥) وفى هذا ما فيه من تفاهم متبادل بينهما ، ولا أقول «انسجام» ؛ بل نستطيع أن نجرؤ فنقول ؛ ان « الافغانى » ظل وفيا لاسماعيل ، حتى بعد نفى الاثنين من مصر « الافغانى » واسماعيل » فقد كتبت مجلة « العـــروة الوثقى » التى أصدرها « الافغانى » فى باريس ســـنة

١٨٨٤ مصـــورة اسماعيل فى موقف المناضـــل ضـد الاستعمار البريطانى ؛ والغيـــور على استقلال مصر ومصلحتها ، ويزيد الافغانى ـ فتدعو مجلته الى عـــودة « اسماعيل » ثانية لمصر ، لا لينقذها وحدهـــا من الاحتلال البريطانى الذى جثم على صدرها ، وانما لينقـذ الشرق بأسره !! فتقول ما نصه :

« ... اننا نعلم ان اسماعيل باشا لو رجع الى مصر لا يكتفى بتخفيض سلطة الانجليز فى وادى النيل ، بل يبذل جهده فى محو النفوذ الانجليزى بالمرة ؛ وربمـــا مد بحباله الى سائر البلاد المشرقية الداخلة فى ســـلطة الانجليز ليحبط أعمالهم ؛ ويهدم أركان سلطنتهم عليها؛ لأنه يعلم (أى اسماعيل) ان الدولة الانجليزيـــة هى السبب فى كل مصاب نزل به .. » (٢٦)

هكذا يقول « الافغانى » وكأن الذى حدث لاسماعيل ولمصر فى عهده ومن بعـــده ؛ لم يكن نتيجـــة لاسراف « اسماعيل » وسوء تدبيره ...

***

● صحافة الأفغانى وخطة اسماعيل :

ظل « جمال الدين الافغانى » بعيدا عن الاشتغـال العلنى بالسياسة حتى سنة ١٨٧٦ عندما وجد « الخديوى

إسماعيل » نفسه وحيـــــدا أمام الدولتين الأعظم ــ فى ذلك الوقت ــ « انجلترا وفرنسا » وعندما لجأ الى المصادر الشعبية ؛ يستمد منها القوة التى يستطيع بواسطتهـا ، أن يقف أمام هذا الغول الأجنبى الذى أنشب مخالبــه فى وجهه ٠

عندها أوعز « اسماعيل » للصحف ــ كما سـبق لنا القول ــ لتقف أمام هذا التدخل موقف المعارضة ٠

وكان أن انطلقت الأقلام من عقالها ، تطبيقا لهـذه الخطة من جهة ؛ ولأنها فرصة لم تتح لأصحابها من قبل ، فلا يجب أن تفوت من جهة أخرى ٠٠٠

وتطبيقا لهذه الخطة أيضا قام « السيد جمـــال الدين الأفغانى » بمعونة من المسـئولين (٢٧) بتكليـف اتباعه «سليم عنحورى» * و «ابراهيم اللقانى» ** بانشاء

---

* كان من أولياء جمال الدين والمقربين اليه ، وهو شاعر ألف ديوانا مطبوعا اسمه «سحر هاروت» وفى مقدمته ترجمة وافية لاستاذه جمال الدين ، وقد أصبح بعد اخفاق الثورة العرابية من أولياء الحكومة، ونظم قصيدة طويلة فى مدح بريطانيا (٢٨) ٠

** كان كاتبا ثائرا من قبل أن يتتلمذ على الأفغانى ، وقد أصدر جريدة «مرآة الأفكار» سنة ١٨٦٩ بالاشتراك مع محمد عثمان جلال غير أنها أغلقت بعد عددين لحدتها ، وحوكم اللقانى لاشتراكه فى الثورة العرابية فنفى لمدة ثلاث سنوات ، اختفى بعدها من المسرح السياسى واشتغل بالمحاماة ثم توفى مريضا بالسل سنة ١٩٠٧ ٠

جريدة « مرآة الشرق » بالقاهرة ؛ كما أوعز الى « يعقوب صنوع » * بانشاء جريدة (أبو نضارة » بالقاهرة أيضا ؛ وأوحى الى (٣١) « ميخائيل عبد السيد » (٣٢) بانشاء جريدة « الوطن » ** لهذه المهمة ؛ وكلف « أديب اسحاق وسليم نقاش » باصدار جريدة « مصر » بالقاهرة أولا ؛ ثم بنقلها الى الاسكندرية مع اضافة جريدة أخرى هي « التجارة » ثم أوحى لجمعية « مصر الفتاة » بالاسكندرية ــ وقد سبقت الاشارة اليها ــ بانشاء جريدة تحمل اسمها وتصدر بالعربية والفرنسية معا ، وتستهدف نفس الغرض ، مع شيء من التطرف في الأسلوب ؛ لكن

---

* كان يعقوب صنوع يهوديا ماسونيا من رعايا ايطاليا ، كان معلما للرقص في قصر اسماعيل واشتغل بالتمثيل وألف عددا كبيرا من التمثيليات اكثرها بالعامية ، ونال تشجيع اسماعيل حتى لقبه بموليير مصر ، وكان في الوقت نفسه من شعراء القصر (٢٩) ثم غضب اسماعيل عليه اذ أحس أنه يعرض به في رواياته فأغلق مسرحه ، وساعده الأفغاني على اصدار مجلته « أبو نضارة » بعد أن استرضى صنوع القصر ، ولكن يعقوب ما لبث أن دعا في مجلته هذه الى الأمير عبد الحليم خصم اسماعيل اللدود ومنازعه على العرش فنفاه الخديوى (٢٩) ويقول « أنور الجندى » ان خصومة يعقوب صنوع لاسماعيل لم تكن ولاء لمصر وانما كانت ولاء لفرنسا (٣٠)

** كان ميخائيل عبد السيد ومجلة الوطن ينزان تعصبا وقد ألف ميخائيل كتاب الهداية في ذلك ولما قدم نسخة منه هدية لابراهيم اليازجي أحرقها ترفعا عن قراءة المثالب التى به ، أما مجلته فقد قالوا انها اكانت احتلالية أكثر من المقطم اذ كانت تحرض انجلترا على ضم مصر لمستعمراتها كما انها كانت تدعو الى التفرقة العنصرية (٣٣) .

هذه المظاهرة ؛ الى جانب المظاهرة الأخرى التى قـــامت بمجلس النواب فى ١٨٧٩/٣/٢٧ الى جانب العريضـــــة التى قدمها الحزب الوطنى القديم فى ١٨٧٩/٣/٢٩ كل ذلك لم يجد « أسماعيل » فتيلا فقد خشيت انجلتــرا وفرنسا أن تتطور هذه المظاهـــرات الى وضع يغـــاير مصالحهما (٣٤) فكان ان تدخلتا لدى الباب العـــالى وما كان بحاجة الى هذا التدخل ؛ ومن ثم أصدر فرمانـا بخلع « الخديوى اسماعيل » ؛ وكان أن غـــادر البـلاد فى أواخر يونيو ١٨٧٩ وتبعه « الافغانى » اذ غـــادر « مصر » منفيا هو الآخر فى أواخر أغسطس من نفس العام أى بعد شهرين من الزمان •

وليس من شأننا هنا أن نتابع صحف « الافغــانى » فى القاهرة اذ أن لذلك مجالا آخر ، وانما نحـــاول ـ فى هذا البحث أن نبين دور صحفه بالاســكندرية ، كيف قامت أو كيف أدت رسالتهــــا ؟ والام انتهت ؟

المراجع المحال اليها فى هذا الفصل

(١) ص ٧٥ جـ١ تاريخ الأستاذ الإمام لمحمد رشيد رضا ٠

(٢) ص ٦٧ من الاسلام والحضارة الغربية للدكتور محمد محمد حسين ٠

(٣) ص (ب) من مقدمة رسالة الماجستير المقدمة من عبد الباسط محمد عوض لقسم التاريخ بكلية آداب جامعة الاسكندرية عن الأفغانى وهى محفوظة بمكتبة الكلية ٠

(٤) راجع ترجمات الأفغانى فى زعماء الاصلاح لأحمد أمين وتاريخ الأستاذ الامام جـ١ وعصر اسماعيل للرافعى ٠

(٥) ١٥٤ جـ٢ عصر اسـماعيل للرافعى وكثير من الكتب التى ترجمت له ٠

(٦) ص ٤٤ جـ١ تاريخ الأستاذ الامام وص ١٦٤ جـ٣ من دائرة معارف محمد فريد وجدى ٠

(٧) ص ١٩٧ جـ٢ من مصر فى عصر اسـماعيل لالياس الأيوبى و ص ٣١ من تطور الصحافة العربية لأنور الجندى ٠

(٨) ص ١٣ من اعلام الحرية لأنور الجندى

(٩) راجع ترجمة رياض باشا فى كتاب الأيوبى السالف الذكر ٠

(١٠) نفس الفصل ونفس المرجع ٠

(١١) قصيدة خاتمة رياض لأحمد شوقى الديوان الجزء الثانى على اختلاف الطبعات ٠

(١٢) ص ٢٥٩ من مجموعة مقالات العروة الوثقى نشر البستانى ٠

(١٣) ص ١٨٤ جـ١ تاريخ الأستاذ الامام ٠

(١٤) ص ١٨٦ جـ ١ تاريخ الأستاذ الامام ٠

(١٥) التراجم فى الدرر لأديب اسحاق وزعماء الاصلاح لأحمد أمين والجزء الأول من تاريخ الامام والاسلام والحضارة الغربية .

(١٦) ص ٨٦ من مذكرات عبد الله النديم .

(١٧) ص ٢١٠ من جمال الدين الأفغاني وسيرته لمحمود أبو ريه .

(١٨) ص ٨٦ وما بعدها من مصر والمسألة المصرية للدكتور أحمد عبد الرحيم و ص ٩٢ من كتاب أبي ريه السالف الذكر .

(١٩) ص ٧٤ جـ١ من تاريخ الأستاذ الامام .

(٢٠) تناولت ذلك بشىء من التفصيل فى كتابى عن الأفغانى (مخطوط) .

(٢١) ص ١٥٦ جـ٢ عصر اسماعيل للرافعى .

(٢٢) نفس المرجع والصفحة وما بعدها .

(٢٣) » » » » »

(٢٤) ص ٢٤٤ جـ ١ مصر في عصر اسماعيل للأيوبى و ٢٦٤ جـ ١ عصر اسماعيل للرافعى .

(٢٥) ص ٤٧ جـ١ من تاريخ الأستاذ الامام .

(٢٦) ص ٤٠٩ من مجموعة مقالات العروة الوثقى .

(٢٧) ص ٤٤ ـ ٤٦ من الجزء الأول من تاريخ الامام .

(٢٨) ص ٣٣٢ تطور الصحافة العربية لأنور الجندى .

(٢٩) راجع يعقوب صنوع الكاتب الثائر للدكتور ابراهيم عبده .

(٣٠) ص ٣١ تطور الصحافة العربية لأنور الجندى .

(٣١) ص ٨٦ مصر والمسألة المصرية للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى .

(٣٢) ص ٣٣١ تطور الصحافة العربية لأنور الجندى .

(٣٣) ص ٩٢ من تطور الصحافة السابق ذكره و ص ١١ من المعلوم والمجهول لولى الدين يكن وجريدة الشعب ٨ مايو سنة ١٩١٢ .

(٣٤) ص ٦٩ من ثورة ٢٣ يوليو وجذورها للدكتور محمد محمود السروجى .

الفصل الرابع

أديب إسحاق وصحافته بالإسكندرية

- أقوال ...
- الممثل يجد عملا آخر
- جريدة مصر بالاسكندرية
- أديب اسحق والنديم
- أديب اسحاق والأفغانى
- الحكومات الاستبدادية
- اتجاهات جديدة
- أديب اسحاق واسماعيل

● أقوال !! .

● أصبح الناس يتحدثون بعبارات «أديب » ويحفظون أقواله كما يحفظون الحكم والأمثال :

جورجي زيدان (١)

● « أديب » ناري الشعور : متقد الخاطر ، كأنــه كان في رفقة الحجاج يوم دخل الكوفة :

مارون عبود (٢)

● كان « أديب اسحاق » من مرتزقة الأدباء .. !!

أحمد عرابى (٣)

* * *

● الممثل يجد عملا آخر

كان كل أمل « أديب اسحاق » عندما وفد الى الاسكندرية أن يعمل فيها بالمسرح تحت اشراف الاديب الســــــورى « سليم نقاش » الذى كان قد سبقه بقليل الى المدينــة الجميلة ...

ولكن عوامل لم تكن فى حسبانه ؛ طرأت فجأة ؛ فانهار مسرح « النقاش » ؛ وأطاحت بأحلام ذلك الغريب، ومن ثم أصبح «أديب» خاوى الوفاض · بادى الانقاض » كما يقول ببلدياته « سليم عنحورى » الذى نترك له تكملة هذا الحديث ·

« ·· وكان أن بعث به (أى بأديب) المرحوم «حنين الخورى » الى القاهرة مصـــحوبا بكتاب وصـــاية الى (جمال الدين الأفغانى) فأحسن هذا لقياه ، لما تونسـمه فيه من أمارات الذكاء ، ومخايل النجابة ؛ ولزمه ثمت ملازمة اللام للألف ، وأقبل عليه اقبال الهـائم العـانى الكلف ؛ فحصل على امتياز صحيفة اسمها (مصر) واتخذ له دكان (بباب الشعرية) هيأ له فيه من أدوات الطبع، ما قوى معها على اصـــدار تلك الصحيفـة ؛ ثـم رأى (أى جمال الدين) ان ثغر (الاســكندرية) أقـــرب لاصطياد الاخبار ، فوفق بين (أديب وسليم) وأوعـــز اليهما ؛ بنقل الادارة اليها ، بعد أن مكنهما من نـــوال امتياز آخر لصحيفة يومية دعياها (التجارة) ثم أومأ الى كاتبيه (الشيخ محمد عبده وابراهيم اللقانى) أن يخدما هاتين الصحيفتين ؛ قلما وسعيا ؛ ما استطاعـا الى ذلك سبيلا ، وجعل يواصلهما بشذرات من قلمه البديع ؛حتى كان سبب شهرتيهما ·· » (٤)

ويوجز السيد « عبد الله النديم » ذلك فى قوله :

« وممن أتوا الى جمال الدين من الآفاق : الكـاتب

المنشيء أديب أفندى اسحاق ، فرآه فقير الحال ؛ لا يملك شيئا من المال ؛ فساعده بنفسه وماله ؛ وفتح له جريدة مصر لسان حاله ·· » (٥)

* * *

● جريدة مصر بالاسكندرية

هكذا بدأ « أديب اسحاق » حياته الصحفية بالقاهرة سنة ١٨٧٧ ولم يكن يملك غير عشرين فرنكا فيما يقول « أديب » نفسه (٦) ·

والذى يهمنا هنا ؛ هو أن نتحدث عن جريدتيه « مصر والتجارة » منذ أن وفد الى الاسكندرية ، فقد أصبحت جريدتاه · لسانا للحزب الوطنى الأول الذى تأسس بشكل سرى فى « حلوان » ثم أعلن عن نفسه بعد قليل ···

وهو حزب كان يضم عددا من كبار الملاك وعلى رأسهم « محمد سلطان باشا ومحمد شريف باشا » وعندما نفذ « أديب » ارادة « جمال الدين » ونقل جريدة « مصر » إلى الاسكندرية سنة ١٨٧٩ كتب فى احدى افتتاحياته للجريدة عن هذه النقلة فكان فيما قال :

« ·· هذه جريدتنا بين عامها الأول تودعه وهى تقول

(يا راحلا عني رحلت مكرما) وعامهـا الثاني تلقاه وهي تنشد (يا نازلا عندي نزلت معظما) وقد كان لهـا في عامها الاول ، حركة سير بينة : لغاية معينة ، أدت بها حق الخدمة وفرضها ، وقضت الواجبات أو بعضها ؛ فانتقلت الى ثغر الاسكندرية ؛ تنشد بها ضالة الرجاء ، وتنتجع سحابة النجاح وسلكت من القصد منهجا ؛ لا تخاف من لام ومن هجا ، غير أن تكامل الشيء لا يكون دفعـة ، والانتقال بغير قطع مسافة محال ؛ أما الارادة فلم تتجاوز بنا جانب الجهـد ؛ ولم تخرجنا عن سبيل القصد ، وهو استكمال أسباب التقدم ؛ فمنها حسن الاختيار في النقل وهو من أهم واجبات الجرائد ، ومنه تقديم الاهم عـلى المهم ؛ وانتقاء الاخبار الموجبة لاحياء الهمم ؛ والتعـاون والتآزر على استجلاب العزة ، وانتخـاب الأقوال المؤيدة للحقائق الانسانية ، ومنها تهذيب العبارة ؛ وتقـريب الاشارة ؛ وتنقيح الكلام وتقرير المعنى في الافهام ، مع تجنبنا مبتذل الكلام وسوقيه ؛ واطراحنا فاسد الكلام ، وعاميه فإنه داء اذا سرى في عامة الناس ؛ أمات اللغة ؛ وأغلق على الطلبة معاني كتب العلم ٠٠ » (٧)

● أديب اسحاق والنديم :

ما ان استقر « أديب اسحاق » بالاسكندرية حتى اجتمع اليه أدباء مصر ؛ وكتبة العصر ٠ فزفوا اليـه من

الآداب ، ما تنورت به الألباب ·· » (٨) وكان على رأس هؤلاء الأدباء الأديب السكندرى الفذ « السيد عبد الله النديم » الذى وجد فى هذه الجريدة ، وفى زميلتها « التجارة » منبرين يرتقيهما كيف يشاء ، ويبعث من فوق صفحاتهما بنفثاته التى يضيق بها ؛ ويتحدث من نوافذهما الى أبناء وطنه بما يريد من حديث ؛ ولأنه كذلك وجد عند محرريها صدى لميوله الثورية ؛ ولنسمعه وهو يحدثنا عن هذا فى مذكراته فيقول :

« ··· عندما انتقلت الى الاسكندرية * اجتمع أديب بى فى جلسة أدبية ؛ وطلب منى أن يكون لى عبارة · فى مصر والتجارة ، فالتزمت تحرير أغلبهما ، لكون مشربى من مشربهما ·· » (١٠)

ولما كان « أديب اسحاق » و « سليم النقاش » يدركان تماما جوهر فطرة « النديم » التى نشأ عليها ، ويعلمان انه بعيد عن التفكير فى المادة ، وبخاصة اذا كان مندفعا ـ لتنفيذ هدف له ، أو اذا صادف ، ما يطلب منه هوى فى نفسه ؛ لهذا أستغل الشريكان فيه هذا الجانب الى أبعد مدى ، ولقد ترك لنا « أحمد سمير » (١١) وصفا فيه ما يشبه العتاب والضيق ، يدور حول هذه النقطة نقتطف منه هذه العبارات التى تدور على ما كانا يتمتعان به من خلق انتهازى النزعة ـ فيما أظن ـ ذلك اذ يقول :

---

* كان النديم قد أقام بالقاهرة قبل نقلته هذه عدة سنوات (٩)

وأحس صاحبا الجريدتين اقبال القراء عليهما ؛ استحسانا لأسلوب النديم وأفكاره فوكلا اليه تحرير معظم ما يكتب فيهما ؛ غير أنهما استغلا ولعه بالكتابة، ورغبته فى نشر أفكاره ، واستفادا من مقالاته ؛ مادة ومعنى ، فلم يؤجراه على كتاباته ، وكثيرا ما ضنا عليه حتى بذكر اسمه فى ذيل مقالاته ؛ بل يتركان القراء يفهمون أنها لهما ومن انشائهما ؛ وكثيرا ما كان ينسبانها لأنفسهما ويمهرانها بامضاءيهما ٠٠ (١٢)

***

● أديب اسحاق والافغانى :

و « أديب اسحاق » ــ فى هذه الفترة ــ وفى لأستاذه « الأفغانى » غير ناس لفضله فلا يذكر اسمه فيجريدتيه الا مقرونا بالجلال ؛ محاطا بهالة ضخمة من الألقاب العجيبة ؛ والتعريفات الغريبة ، التى لم تعتد آذان الناس سماعها ، ولعل أفهام الكثيرين منا فى عصرنا هذا ــ لا تدركها،أو على الأقل ؛ لا تستسيغها ؛ من مثل: « مهبط أسرار الحكمة ؛ وأسطرلاب فلك العلوم ، واستقص هيولى الفلسفة ٠٠ »

واذا أورد خبرا عنه جاء به على هذه الصورة المتغالية « ٠٠ فى عشية يوم الجمعة ، وفد على الاسكندرية ٠ سيدنا

فهرست كتاب الكمال ، وفذلكة حساب الجلال ، أستاذنا الأجل ؛ الفيلسوف الأكبر ، السيد جمال الدين الأفغاني؛ فابتسم له الثغر عن درر الهناء به ؛ وغرر الثناء عليه ، وسعى اليه النبهاء والوجهاء ؛ وما من جارحة فيهم الا وهي تود لو كانت أذنا فتلتقط درره وجواهره ، أو عينا لتجتلي مطالعه ومناظره ؛ وقد أعد له جبريل أفندي المجلع ؛ نجل بارودي دي فنشي ؛ مأدبة فائقة الحسن والظرف ، نأخذ باللب والظرف ؛ جامعة لمحاسن الكمالات ، وكمالات المحاسن ، متوفرة أسباب الهناء والسرور . كاملة وسائل الأنس والحبور .. » (١٤) .

فاذا نشر « أديب » نبأ من الأنباء العامة ؛ راح يتلمس الفرصة ، ليبين سعة اطلاع الشيخ ؛ ومدى احاطته بكل شيء علما ، ومن ذلك ما أورده عن محاولة اعتداء وقعت من أحد أفراد الطائفة البهائية على « شاه العجم » ، فبعد أن أورد خلاصة لهذه الحادثة ؛ اختتمها بهذه العبارة « .. هذا هو الملخص ؛ وسنورد تفصيلها في غير هذا المقام ، مع بيان حال تلك الطائفة ومذهبها ؛ وانقسام امامته ، مستمدين جميع ذلك ؛ من بحر معارف أستاذنا الكبير ؛ الفيلسوف الشهير ، درة تاج الحكماء وواسطة عقد العلماء الفضلاء ... السيد جمال الدين الأفغاني ... » (١٥)

* * *

● الحكومات الاستبدادية :

ولا يضن الشيخ علي تلميذه بمقالتين من أشهر مقالاته؛ نشرهما أديب بجريدته « مصر » الاولى بعنوان « روح البيان في الانجليز والأفغان » وقد قيل ان « غلادستون » السياسى الانجليزى المشهور ، اهتم بها وناقشها ٠٠ (١٦) أما الثانية فكانت بعنوان « الحكومات الاستبدادية » وهذه هى التى يهمنا موضوعها ؛ ولذلك سنحاول أن نوجزهـــا الى أقصى حد ممكن ، مع احتفاظنا بجوهرها وبنص كلماتها ؛ ذلك لأن المقالة من الطول بحيث لا يتحملها الحجم المقدر لهـــــذا الكتاب ، يقول « الافغانى » فى هذا المقال :

« ٠٠٠ ان الانسان الحقيقى هو الذى لا يحكم عليــه الا القانون الحق ؛ المؤسس على دعائم العدل الذى رضيه لنفسه يحدد به حركاته وسكناته ومعاملاته مع غيره على وجه يصعد به الى أوج السعادة الحقيقية ٠٠٠

ان الحكومة الاستبدادية باعتبار عناصرها الذاتية ؛ وأقانيمها الحقيقية التى هى عبارة عن أمير أو ســلطان ، ووزراء ومأمورى ادارة وجباية ، تنقسم الى ثلاثة أقسام ٠

القسم الأول = الحكومة القاسية

وهى التى تكون أركانها ، مع اتسامهم بسمة الأمـارة والوزارة والادارة والجباية ؛ شبيهه بقطاع الطرق ؛ فكما أن قاطع الطريق ؛ يقطع طرق السابلة ويسلبهم أموالهـم ومؤنهم ، وثيابهم التى تقيهم الحـر والبرد ، وســــائر مواد حياتهم ؛ ويتركهم فى البوادى والقفار ، حفاة عراة جياعا ، تقطعت بهم حبال الوسائل ، ولا يلاحظ أن فيهم الهرم والصغير ؛ والعاجز والضعيف الذين لا يستطيعـون التخلص من المهالك ، ولا يبالى بموتهم وهلاكهم عن آخرهم ولا تأخذه فى ذلك الشفقة والرحمة ... كذلك هــــؤلاء الأركان ... يغتصبون ضياع رعاياهم ،[1] وعقاراتهــــم ؛ ويستولون على مســاكنهم وبساتينهم وينتزعون بالضرب والحبس والكى وغيرها من أنواع العذاب ما بأيديهــــم من ثمرات اكتسابهم ...

القسم الثانى = الحكومة الظالمة :

وأولياء هذه الحكومة تماثل الأخساء والمترفين الذين يستعبدون أناسا خلقوا أحرارا ؛ فكما أنهم يكلفـــون عبيدهم بأعمال شاقة ؛ وأفعال متعبة ، يجبرونهم على نقر الأحجار ؛ وخوض البحار ، وفلق الصخور ؛ وقلع الجبال،

ويحجبونهم بأشغالهم المستغرقة لأيام حياة هؤلاء المظلومين؛ عن مزايا جواهر عقولهم المقدسة ، حيث لا يجدون فرصة من دهرهم ؛ للنظر فى الآفاق وفى أنفسهم ، كى يرتقوا من الاحساس البهيمى ؛ الى عرش الادراك الانسانى ، ومع ذلك يحرسون حياتهم ويحرصون على استبقائها ، استبقاء للخدمة منهم ، بتقديمهم قوتا من أردأ ما يقتات به لسد الرمق ، .. كذلك هؤلاء الولاة من رعاياهم ..

القسم الثالث = الحكومة الرحيمة :

وهى تنقسم الى قسمين ، الأول منها (الحكومة الجاهلة) ودعائم هذه الحكومة ، تحاكى الأب الرحيم الجاهل ؛ فكما أنه يحث أبناءه على اكتساب الثروة ، والاقتصاد فى المعيشة واستحصال السعادة ؛ بدون أن يبين طرقها ؛ ويمهد لهم سبلها لعدم علمه بها ؛ فكأنه يدعوهم الى أمر مجهول مطلق لا يهتدون اليه سبيلا ...

والثانى من هذين القسمين (الحكومة العالمة) وهى تنقسم الى قسمين (١٧) ويستطرد « الأفغانى » فى بيان هذين القسمين ؛ فشبه حكومة «القسم الأول » منهما بالرجل العالم غير المستكمل العقل ؛ والذى يبين الطريق لأبنائه ، ولكنه لا يلاحظهم فيهوون فى هاوية من سوء التصرف ، وشبه حكومة « القسم الثانى » من هذين القسمين الأخيرين،

بالأب العالم الذى يرعى أبناءه ، بعد أن يمهد لهم كل طريق ثم يطالب بهذه الحكومة ؛ لأنها الأصلح ويختتم مقالتـــه بقوله : « .. وأما أنتم يا أبناء الشرق ، فقد ألفتم الذلة والمسكنة واستبدلتم القوة بالتأسف ؛ وصرتم كالعجائز لا تقدرون على الدفع والمنـــع والرفع ، فانا لله وانا اليــه راجعون .. » (١٧) .

* * *

● اتجاهات جديدة

ويوالى « أديب اسحاق » نشر مقالاته التى تتســـم بالجدة – الى حد ما – بالنسبة للقارىء العادى وقتئـــذ ، فيتحدث عن الثورة الفرنسية ؛ وآثارها فى أوروبا ؛ وعن أنصار « النهليست » فى روســـيا ؛ وعن أنصـــــــار « السوسياليست » فى ألمانيا فى مقال طويل نشره بجريدة « مصر » نلخصه مع الاحتفاظ بكلماته فيما يلى :

« ... شعلة اصلاح فى كمون الدهر فى عالم الضياء والنور ؛ ساقتها يد الحكمة بمعدات الحركة الى عالم الظهور وسرت فى أوربا من جانب الغرب الأقصى ، وكمنت فيمـــا وراء المانش أياما وأعواما، منتقلة من صورة الى صورة؛ ومن كيفية الى كيفية ؛ حتى أعدت لها طريق البروز ؛ فظهـــر ضرامها بعد الخفاء ، وانبعثت منها جراثيم الضياء ، فغيرت

وجه الأرض وحالة النـاس ؛ وطهـرت ذلك الجـانب من الأرجاس :

تلك ثورة « الفرنسيس » برزت الى عالم الفعل عـام ١٧٨٩ وصدمت قوة الاستبداد فزلزلتها ؛ ودفعت سطوة التقليد فضعضعتها ، ورفعت عن العيون نقابهـا ؛ وعن النفوس حجابها .. ثم سرت تلك الشعلة من الجـانب الغربى الى الشمالى ؛ وهى فيه كامنة تحت رماد الاستعداد ... وانا ...

نـرى خلـل الرماد وميض نار
ويوشـك أن يكون لـه ضرام

فان النهليست (الفوضـوية) فى الروسـيا والسوسياليست (الاشتراكية) فى المانيا . طائفتان قد استفحل أمرهما ؛ وعظم شـأنهما وحسبك ان فتاة من النهليست يقال لها « ساموليتش » قد تجاسرت وهى فى أرض السلطة تحت سماء السطوة ، أن ترمى والى الشرطة بالرصاص عمدا ؛ وأنه قام لها بين قومها نصراء ومحامون؛ وشفعاء ومدافعون ؛ وأن فتى من الطائفة الثانية ، يسمى (لهمان) قد تجـرأ وهو فى أرض القوة ؛ تحت سـماء العظمة ؛ أن يرمى الملك الفاتح الكبير بالرصاص ثلاثا ؛ وأن هذه الطائفة ، قد أصابت من الفوز والسطوة ،والتقدم والقوة ، ما أوقع فى قلب الدولة هيبتها ، وحملها على الأمر باستئصال شأفتها ، وتعطيل جرائدها .. غير انهـا لن تستطيع اخماد تلك النار ، وأن منعتها من السير حينا ؛فان

الاسباب اذا أعدتها الحركة اللانهائية ؛ وتسنت لهـــا المسببات (القابلة) حصل الوجود وجوبا ·· (١٨)

***

● أديب اسحاق واسماعيل :

و « أديب اسحاق » فى جريدتيه هاتين ، كأستاذه « الافغانى » لا يهاجم « اسماعيل » هجوما مباشرا ، بل انه يكاد يمدحه ؛ ان لم يكن قد مدحه فعلا ؛ ونقتبس من مقال له نشره بجريدته « مصر » سنة ١٨٧٩ هذه الفقـــرة ؛ كدليل على موقفه ؛ أمام « اسماعيل » وولى عهده « توفيق » ذلك حيث يقول :

« ·· فليحي أهل مصر بما آتاهم الله من فضــــله العظيم ؛ وليسعدوا بما أفاء عليهم من ظلال جوده العميم ، وليشكروه فى العشى والأبكار ، ويحمدوه آناء الليـــل وأطراف النهار ؛ وكيف لا يحمدونه وقد خصهم بمليك ·

ذكر الأنام لنـــا فكـــان قصيدة
وهو البديع الفرد من أبياتها ·· » (١٩)

ثم يوالى الحديث فيقول عن ولى عهده « توفيق »

« رأيت جميع الناس دون محله
فأيقنت ان الدهر للناس ناقـــد

وقد علم قراء صحفنا ؛ أن ليس من شأننا الاطراء استجداء ؛ ولا الوقيعة افتراء ؛ وأننا ننظر الى الفعل ، لا الى فاعله، الى القول لا الى قائله، فانه ليس وراء الصدق رفعة ؛ وليس بعد الكذب ضعة ؛ والحق ملك لا ينكسر لواؤه ، وان قل أولياؤه ؛ وهذه صفحة ثناء تنزهت عن الملق ، يقال لمن تلاها أصاب وصدق ؛ ذكرنا بها محمدة أمير ، اذا ذكر الشرف كان بذروته » الخ (١٩) والمقال طويل موجود بكامله في مصدره ؛ والحق انى لست أدرى ، ان لم يكن هذا الكلام ملقا ؛ فكيف يكون الملق . . ؟

* * *

● جريدة التجارة :

واذا كانت جريدة « مصر » قد استأثرت بأغلب حديثنا عن صحافة « أديب » بالاسكندرية ؛ فليس معنى ذلك أن جريدة « التجارة » ــ رغم أشهرها القصيرة ــ لم تقم بواجبها الصحفى كما يجب ؛ وانما الذى أعطى « مصر» هذه الأهمية ؛ انها كانت جريدة مقال ورأى ، فى زمن كان اهتمام الجمهور فيه كبيرا بالمقال والرأى ، وان « مصر » هذه كانت تصدر أسبوعية ، أى أن مقالاتها تكتب بعد أناة وروية ؛ ولذلك فهى ــ من ناحية الافكار ــ أكثر ثراء من زميلتها التجارة ؛ التى كانت تصدر «يومية»

وتعتمد على نشر الحوادث الجارية ؛ والأنباء العامة : والأخبار الاقتصادية ، ومدار الاحوال التجارية ، كما كانت تنشر بعض الكلمات التى تلقى فى المحافل العامة الاجتماعية والسياسية كالتى كان يلقيها «عبد الله النديم» وتلاميذه ورفاقه (٢٠) وهى من هذه الناحية أكثر افادة لمن يريد التعرف على الأحداث اليومية لذلك العهد ، على أنها كانت تنشر بعض التعليقات على الأنباء السياسية ؛ ومن أمثلة ذلك ، الكلمة التى نشرها النائب « عبد السلام المويلحى » تعليقا على تكليف « الخديوى اسماعيل » لمحمد شريف باشا ؛ بتشكيل وزارة جديدة ؛ يكون وزراؤها مسئولين ؛ وقد استجاب « شريف » للتكليف ، وألف الوزارة من بعض الأعضاء المتعاونين معه ، فكان ان علق « المويلحى » على قرار تشكيل الوزارة بكلمة فى «التجارة» قال فيها :

« ... ورد فى قرار تشكيل الوزارة ؛ ان الوزراء مسئولون ؛ ولكن .. ما هى هذه المسئولية ؟ ؛ ومن هو السائل ؟ ، وما هى القوانين المنبهة لوظائف الوزراء ؟ المعينة لتكاليفهم ؛ المحددة لواجباتهم ، المعرفة لحقوقهم ؟ وعند أى حد تقف سطوتهم ؟ وفى أى الاحوال يكونون مذنبين ؟ فانه حيث لاتكون هذه القوانين فلا وجود للواجبات ولا الحقوق ؛ وبالاضافة لا وجود للمسئولية ؛ فلا بد والحالة هذه ؛ أن يكونمجلس الشيوخ والنواب هو السائل وأن تضع حكومتنا قانونا بهذه المسائل » (٢١) .

***

● جريدة مصر الفتاة

أما جريدة « مصر الفتاة » التى أصدرتها الجمعيـــة السرية المسماة باسمها بالاسكندرية ، التى أشرنا اليهـا فيما سبق ، فان « أديب » لم يكن له فيها فى الأغلب الا ترجمة بعض المقالات الفرنسية المنشورة بها ؛ لكى تنشر بالقسم العربى منها ؛ ومن أهم ما كتبه فيها ؛ مقال فى تاريخ مصر جاء فى ختامه :

« ... اذا علمنا أن الأمة المصرية ؛ قد فقدت حريتها منذ أعوام وأعصار ؛ وأن حكامها كانوا سادتها ؛ وأنها كانت عرضة لغاياتهم ، وغرضا لأهوائهم ؛ مع فقد أسباب الادارة ؛ ووسائل العمارة ؛ سهل علينا ادراك سبب تأخيرها ؛ وفقد قوتها الأدبية ، وبقاؤها ساكنة كل هذا الزمان الطويل .

فيا أيتها الحرية ..

يا مصدر كل أمر جليل فى الأرض

لقد علمنا انه لا نجاح لنـــا بدونك ؛ ولا سعـادة مع البعد عنك ، فان الأمة الحرة ، تكون كفرس غـــير مقيد ؛ يسير رافعا رأسه ؛ ويتنشق ملء صدره الهـواء النقى ؛ ويسرح فى المرعى النضير ، وأما الشعب المستعبد

فهو كفرس يدور حول الرحا مغمض العينين يسير السنة ولا ينتقل من مكانه ...

ويا أيتها الأمة المصرية

انهضى من عثرة الغفلة ، وانظـــرى الى الذين نالوا السعادة ، فانك أهل لأعظم المواهب ولا سيما بعـــد أن تولاك أميرك الجديد (يقصد محمد توفيق الذى عين قبل ذلك بأيام) الذى اتخذ الحرية شعارا * ورفع العـــدل منارا ؛ فلا ريب انه يمهد لك طرق الاصلاح ؛ ويسلك بك مسالك النجاح .. » (٢٢)

* * *

● نهايتان :

وتدور الأيام ، ويخلع « اسمعيل » عن عرش مصر؛ وتحمله السفينة « المحروسة » لتلقى به على شـــاطىء « نابولى » بايطاليا ؛ ويلى العرش من بعده ابنه « توفيق» الذى كان صديقا « للأفغانى » وكان قبل ذلك بأسابيع ، يرى فى « الأفغانى » موضع أمله (٢٣) لكن « توفيق »

* كان توفيق زميلا للافغانى وصـــحابته ومنهم أديب بالمحفل الماسونى، وكان قد وعدهم بأنه اذا ما اعتلى العرش سينفذ الحكم الدستورى ويحكم بمقتضاه .

عرف عن كثب ، مقدرة « الافغاني » على التأثير فيمن حوله لما عرف مدى استعداده في تدبير المؤامرات لخلعه هو لو أراد أن يخلعه ؛ وكان توفيق ضعيف الشخصية ؛ ليست له صلابة أبيه ؛ وربما كان قد ورث ضعفه هذا عن أمه التي كانت احدى جواري القصر (٢٤) ولذلك اشتد به الخوف ، واستبد به الحرص والحذر ؛ فكان ان عقد مجلس الوزراء برياسته ، وقرر نفي « جمال الدين الأفغاني » من « مصر » ...

ومع أن « البارودي » وهو من أعز أنصار « الأفغاني » وكان كذلك « ماسونيا » مثله ؛ كان وزيرا في هذه الوزارة ؛ وقد حضر هذه الجلسة ؛ الا أنه لم يعترض على هذا القرار فضلا على وجوب استقالته احتجاجا ؛ كما كان ينتظر من مثله ؛ الأمر الذي حز في نفس « جمال الدين » فقال والحسرة تطفر من كلماته « .. لم يبق في المسلمين أخلاق ؛ فهذا محمود سامي البارودي؛ عاهدني ثم نكث؛وهو أفضل من عرفت من المسلمين»(٢٥)

وكان ان غادر « الأفغاني » مصر في السادس والعشرين من أغسطس ١٨٧٩ وبهذه المناسبة نذكر أن « أديب اسحاق » كتب في هذه الفترة ـ أي بعد نفي أستاذه الأفغاني ـ ترجمة لحياة «جمال الدين» لفت نظري فيها ، هذه العبارات التي يمكن أن تشير اشارة موجزة الى بعض خلق « أديب » ؛ ذلك اذ يقول في هذه الترجمة

بعد أن تحدث عن « الأفغاني » منذ نشأته ، حتى وفوده الى القاهرة ، واقامته بها ؛ « ٠٠ ثم صارت حلقته ملتقى للنبهـاء من رجال الحكومة والوجهـاء ، فكان يكاشف بعضهم بآرائه الحرة ، ويسلك بسائرهم طريق النجاة من الخرافة والجهل » (أى أنه كانت له آراء يعلنهـا للخاصة فقـط هى أبعد مرمى من مجـرد نفى الخـرافة والجهل لا يستطيع أن يجهر بها لغيرهم) ٠ (٢٦) ٠

ويتابع « أديب » كلامه فيقول « ٠٠ على أنه (أى الأفغاني) بقى مجهول الشأن عند العامة ، حتى ظهرت آثاره وآثار مريديه في جريدة مصر ،فاظهرت شأنه ،وصارت تنشر له بعض المقالات ، تارة باسمه ؛ ومرة تحت حجاب اسم مصنوع ؛ مثل « مظهر بن وضاح » ؛ فطار صيته ، وعظم نفوذه ٠٠ » (٢٦) أى أن « أديب » هو صـاحب الفضل فى اظهار « الأفغاني » وليس العكس ، كمـا هو ثابت ٠

ويمكن بعد قراءاتنا لهذه العبارة ؛ أن نقارن بينها ، وبين ما كان يقوله « أديب » من قبل ؛ وما كان يخلعه على أستاذه من أوصاف ؛ بل يمكن أن نراجع ما أسلفناه فى بداية هذا الفصل عن بداية نشأة « أديب » الصحفية ، لنتبين مدى ما كان « أديب » يكنه لأستاذه من وفاء ٠

● رياض باشا يلغي صحيفتي مصر والتجارة

استدعى « الخديوى توفيق » « رياض باشا » الذى كان وقتئذ فى أوربا ليتولى رياسة الوزارة ، فلبى الدعوة وأسندت اليه يوم ٢١ سبتمبر ١٨٧٩ ...

و « رياض » هذا مع ما هو معروف عنه من استبداد فى الرأى تجاه المصريين كان معروفا أيضا بالضعف أمام الأجانب ، ولقد بلغ من ضعفه أمام « كرومر » أنه جاءته شروط توصل اليها « كرومر » فى حل لخلاف قام بين الحكومة وبين احدى الشركات التى تقوم بانشـــاء مرفأ الاســـكندرية ؛ وكان « كرومر » وســيطا ، وكان على « رياض » أن يوقع على هذه الشروط عن الحكومة لتكون نافذة ؛ فأخذ « كرومر » الشروط ومضى بها الى رياض ليطلع عليها ، ويناقشه اذا شاء فيها قبل التوقيع ولكن « رياض » فاجأه بسؤاله : هل أنت موافق على هـــذه الشروط ومقتنع بها ؟

فقال « كرومر » : نعم : عندئذ أخذهـــا « رياض » ووقعها من غير أن يقرأ ما فيها ... (٢٧) الأمر الذى دهش

له « كرومر » نفسه ، حتى قال فيه « انه يود لو يكثر فى مصر من أمثاله » (٢٨)

ولى « رياض باشا » وهذا شأنه ـ رياسة الوزارة فى هذه الفترة ؛ فلم يكن بالذى يعبأ كثيرا بمطالب الحزب الوطنى الذى كان على رأسه « شريف باشا » الذى كان « أديب اسحاق » معبرا عن اتجاهاته فى صحيفتيه « مصر والتجارة » ، ولهذا بدأ « أديب بمهاجمة « رياض » فى صحيفتيه ...

ويوجز السيد « عبد الله النديم » هذه النقلة من أديب فى مذكراته فيقول :

« .. انه بعد سفر جمال (يقصد الافغانى) انعطف أديب الى شريف ومال ، وجعل وجهته تسفيه رياض ، بالنقد والاعتراض ؛ فنفر (أى رياض) من هذين وعطل الجريدتين .. » (٢٩)

وكان منطوق الأمر باغلاق الصحيفتين كما يلى :

« .. حيث سبق صدور الانذارات مرارا عديدة ، وتنبيهات شفاهية الى أصحاب الجرائد الأهلية عموما ؛ والى أصحاب امتياز جريدتى مصر والتجارة خصوصا ؛ بعدم خروجهم عن حدود وظائفهم ، ولا ينشرون ما يوجب تشويش الأفكار ، وصدر له آخر انذار بأنه اذا رجع لمثل ذلك ؛ فتلغى جريدتاه بالكلية وحيث انه بعد هذا الانذار ؛ لم

يترك مسلكه الأول ، لما نشره فى جريدته التجارة نمرة ١٢٣ الصريح فى انه لا يرجع عما هو مصر عليه ؛ وحيث ما اعتادت على نشره هاتان الجريدتان ؛ ضرره أكثر من نفعه اقتضى الحال ؛ صدور الحكم ، من ادارة المطبوعات بالغائهما مؤبدا ٠٠ » (٣٠) ٠

* * *

في انتظار المحروسة والعصر الجديد

الغى « رياض » الجريدتين « مصر والتجارة » فماذا يصنع « أديب » ؟ وماذا يصنع الحزب الوطنى من ورائه ؟

أما « أديب » فقد سعى حتى ظفر بوعد من « على مبارك باشا » أبى التعليم فى مصر ، ووزير الأشغال حينذاك ؛ بأنه سيساعده فى اصدار جريدتين أخريين باسم « العصر الجديد » و « المحرسة » بدلا من السالفتين ، ولكن الوعد طال ؛ واستطال « أديب » أجله ؛ فكتب الى « على مبارك » رسالة تقطر رجاء وذلة يستنجزه فيها ما وعد ؛ وقد جاء فى هذه الرسالة ٠٠ « أتجرأ على فضل الوزير ، غير جاهل أن وقته أثمن من أن يضاع فى مثل موضوعى الحقير؛ ولكن جرت عادة أمثالى ، بقصد أولى الفضل ، وما أولو الفضل فى الدنيا بكثير ؛ فعساه أن يكون لضعفى نصيرا ؛ فأقول (نعم المولى ونعم النصير) ٠

ولقد صار (العصر الجديد) قديما ، بما مر عليه من مؤثرات الانتظار ، وأصبحت (المحروسة) على قدم اليأس تستجير بالأولياء والأنصار ؛ وتتلوى وهى فى عالم القوة بين المخاوف والأخطار ، اذا ما الفكر حار ، واذا ما الزمان جار ؛ أتنسى مصر مزية البر بالجار ؟ أم لايسمع بين براياها صدى نداء المستجير ؟ فلا ينسى مولاى امر الجريدة موعودا ؛ فقد اجتاز الخادم فى هذه العطلة عقبة كئودا ، وعالج الصبر جهده ، ثم عاد منه مجهودا » (٣١)

وعندما أوشكت الجريدتان على الظهور ؛ كان رأى أعضاء الحزب الوطنى (القديم) قد استقر على ايفاد « أديب » الى « باريس » ليقوم بالدعاية للحزب فى العاصمة الفرنسية ، وليهاجم « رياض » من هناك .

وكان أن سافر « أديب » الى « فرنسا » ؛ ليقوم بهاتين المهمتين .

***

● سليم نقاش وعبد الله النديم

كذلك استقر الرأى على أن يبقى « سليم نقاش » بالاسكندرية ليوالى الاشراف على اصدار الجريدتين البديلتين « العصر الجديد والمحروسة » وعلى تحريرهما كذلك ، وعندما اعتذر « سليم نقاش » بمرضه ، قرر الحزب أن

يسهم « عبد الله النديم » فى تحريرهما وكان ان قام «النديم» بهذه المهمة « حسبة » لوجه الوطن (٣٢) ويوجز « عبد الله النديم » قيامه بهذه المهمة فى مذكراته فيقول :

« ... اجتمع بى سليم النقاش وعاهدنى العهد الأكيد ؛ على أن أحرر المحروسة والعصر الجديد ؛ ثم استرخص عنهما (أى طلب رخصة) فؤذن اليه وانعطفت بكليتى عليه والتزمت تحريرهما بقلمى ، وشحنهما بكلمى؛ ولم أذكر اسمى بهما مداجاة لرياض (رئيس الوزراء) حتى لا يسوق لى مرضا من الأمراض .. » (٣٣)

ويحدثنا الدكتور « على الحديدى » عن مقالات النديم الجديدة فيقول :

« .. أخذت العنوانات الجديدة الجذابة؛ التى عنون بها النديم مقالاته ، تلفت النظر الى الصحيفتين الجديدتين (المحروسة والعصر الجديد) فأقبل الجمهور عليهما ليقرأ عن الاخلاق والسلوك تحت عنوان (الاستقامة) و (حلية الناس الأدب) وعن التعاون وأثره فى نهضة الأمم ، وعن الاجتماعات وتبادل الرأى وفضل ذلك فى تكوين الرأى العام تحت عنوان (اشدد يدك بيد أخيك تنجح) وعن التعصب للعنصرية والدين ، وأثرهما الوبيل فى وحدة الصف تحت عنوان (صاحب الحقد ممقوت) وعن المقارنات التى عقدها بين الشرق والغرب وما يجرى فيهما تحت عنوان (نحن وهم .. الخ) (٣٤)

هذا وقد صدرت « المحروسة » يومية فى ٥ ـ ١ ١٨٨٠ بينما صدرت «العصر الجديد» أسبوعية فى ٨ ـ ١ ـ ١٩٨٠ ، وأهم مايلاحظ فى كتابة « النديم » الصحفية فى أول أمر هاتين الجريدتين ؛ أنه تجنب التعرض للسياسة فان تناولها فبأسلوبه الرمزى (٣٤) ·

ويقول « أحمد سمير » ان « النديم » فى هذه الفترة « ترك الكتابة الأدبية واشتغل بالتحرير السياسى ، على الأسلوب الحديث ، بلا سجع ولا تقفية ·· » (٣٥) وأنه ظل يحـــرر بهاتين الصحيفتين ، الى أن جاء صـــاحبهما باثنين من الكتاب السوريين هما « فضل الله الخورى وسليم عباس » فترك لهما أمر الجريدتين وأنشأ مجلة « التنكيت والتبكيت » فيما بعد ·

وقد تولى « فضل الله الخورى » تحرير المحروســـة ثم توالت عليها أيدى غيره حتى انتقلت الى القاهرة حيث تولاها «الياس زيادة» والد الأديبة المشهورة الآنسة«مى»(٣٦) أما « سليم عباس الشلفون » فقد تولى تحـــرير « العصر الجديد » لفترة وجيزة ويقول « جورجى زيدان » عنـــه انه لقى كثيرا من العناء خلال الثورة العرابية فســافر الى أوربا ثم الى الآستانة ثم مات فى بيروت سنة ١٩١٢ (٣٧)

***

● أديب اسحاق في باريس :

أقام « أديب اسحاق » فى « باريس » فترة من الزمن، كان فيها هو وجريدته « مصر القاهــرة » التى أنشأهـا بالعاصمة الفرنسية على حساب أموال زعماء الحزب الوطنى (القديم) بمصر منفذا للهدف الذى أشرنا اليه من قبل ٠

بينما يضيف الأستاذ الامام « محمد عبده » الى ذلك ان «أديب» كان في نفس الوقت مأجورا للخديو «اسماعيل» ينفق عليه وهـو فى باريس ؛ باعتباره أحد الألسنة التى تحاول أن تعيده الى مصر (٣٨) ٠

ويقول « جورجى زيدان » عن « أديب » : انه أقام بباريس وأعاد فيها جريدة « مصر » لا يبالى بما يتهدده فى ذلك من خطر ٠٠ (٣٩) ٠

والحق انى لا أدرى ، أى خطر ذلك الذى كان يتهدده فى باريس ؛ يقترب حتى من ذلك الذى كان يتهدده فى مصر ٠

لقد كانت « باريس » فى ذلك العهد ؛ مأوى لـكل طريد من بلاده ؛ ومركزا دعائيا يجهر فيه من يشاء بالقول كما يريد ، الا أن يتخذ من فرنسا ومصالحهـا مرمى لدعوته ٠٠ هذا بينما يقول « أنيس المقدسى » واصفا حال « أديب » فى هذه الفترة«٠٠ انه عاش فى باريس مستسلما لهوى الشباب ؛ دون مبالاة بصحته ، فلم يلبث أن أصيب بمرض السل » (٤٠)

ويتابعه « مارون عبود » فيقول عن « أديب » في باريس انه يؤخذ عليه ـ رحمه الله ـ تساهله في طرق معاشرته ؛ واطلاق هوى النفس ؛ فيما تسوق اليه الشبيبة ؛ حتى أثر ذلك في مزاجه (أى صحته) .. (٤١)

ولعل هذا الاندفاع من « أديب » هو الذى عناه الشاعر « خليل اليازجى » من طرف خفى ، حين قال فيه :

أخلق بجسمك أن يبيت كليلا
عن جهد نفسك أو يموت عليلا
نهكته نفسك في المطالب والعلا
حتى تمنى للفراق سبيلا .. (٤٢)

ذلك شيء قد لا يعنينا ايضاحه كثيرا ، ولكنه يمكن أن يعطى بعض الضوء على سلوكه العام ؛ وقد يهم هذا بعض الباحثين المعنيين بالسلوك الشخصي وقياس الانسان بمقياسه ؛ ومن أجل هذا ؛ حاولنا أن نضع تحت بصرهم هذه العلامات التى قد تهديهم سواء السبيل ؛ فيما يقصدون اليه ...

* * *

• صفحات أديب اسحاق الأخيرة :

افتتح « أديب اسحاق » جريدته « مصر القاهرة » التى أصدرها في باريس بمقال نارى الأسلوب غمز فيه « رياض » بقوله :

« .. هذه صحيفة مصر ؛ طواها الاستبداد فماتت شهيدة (أى فى مصر) ثم أحيتها الحرية فعاشت سعيدة (أى فى باريس) ، حاول أحدهم (أى رياض) اطفاء نورى ويأبى الله الا آن يتم نوره ولو كره (الظالمون) » (٤٣)

ثم والى مقالاته فيها ، محاولا أن يثير الجماهير فى مصر على « رياض » بمثل قوله :

« ... تلكأ حالكء شاهدة بما أقول ، فقد بليتم بما يذيب الشحم ؛ ويقرض اللحم وينقى العظم ، وأنتم صابرون . ومنيتم بما وفر النقم ؛ وغير النعم ؛ وأهلك النعم ، وأنتم صامتون ، ورزقتم بما جلب المصاب ، وأهلك الحجاب ، وأبرز الكعاب ؛ وأنتم خاشعون . فما الذى تخافون ؟ بل أى عناء لم تعانوه؟وأى بلاء لم تقاسوه ؟ وأى فناء تحذرون بعد هذا الوجود ؟ أم أى وجود تحذرون بعد هذا الفناء ؟ فيا حليف الصبر ؛ دع التردد ان أردت النجاة وأقدم فرب حياة تكون فى طلب الموت ؛ ورب موت يجىء من طلب الحياة .. الخ .. الخ .. » (٤٤)

وهو كلام مثير فعلا ، ولكنى أعتقد ، أنه - برغم الأموال التى أنفقت فى سبيله - لم يصل الى وجدان عامة جمهورنا بالمدن ، ولا الى أعماق أهل الريف ؛ بل لعله لم يصل حتى الى أسماعهم ، وأعتقد كذلك أنه لم يثر الا من كانوا متشبعين بالثورة ضد « رياض » واستبداده من قبل وفى مقدمتهم أعضاء الحزب الوطنى بالذات .

ولما لم تأت الجريدة بالغرض المطلوب منها تماما ؛ورأى القائمون بأمرها فى القاهرة وباريس عدم جدواها ؛ أوقف

الجميع الصرف عليها ؛ ومن ثم أغلق « أديب » أبوابهـا ؛ وانتقل الى «بيروت» ليتولى تحرير جريدة «التقدم» هناك ؛ وما لبث أن قام « أحمد عرابى » ورفاقه بمظاهرة « عابدين فى ٩ من سبتمبر ١٨٨١ وأقيلت وزارة « رياض » بنـاء على طلب العرابيين وتولى « شريف باشا » رئيس الحـزب الوطنى رياسة الوزارة ...

عندئذ ترك « أديب » جريدة «التقدم» البيروتية وعاد الى القاهرة ، حيث أنعم عليه « الخديو توفيق » برتبـة البكوية ، كما اختير سكرتيرا ثالثا لمجلس شورى النواب ، وأصدر جريدته « مصر » بالقاهرة ؛ وعين فى الوقت ذاته ناظرا لقلم الانشـاء والترجمة بديوان المعارف (٤٥) ولكن الثورة العرابية اشتعلت فى البلاد ، فكان أن غادرهـا « أديب » الى لبنان ، ولما أخفقت الثورة ودخل الانجليـز مصر ، رثا «أديب» الاسكندرية المحترقة بقصيدة جيدة لكنه تناول العرابيين فيها بالذم، ثم ما لبث ان اشتد عليه السل فعاد الى لبنان حيث غلبته منيته ؛ غير متجاوز التاسـعة والعشرين من عمره .

***

● بعد الموت :

وبعد ...

فلقد عاش « أديب اسحاق » لسانا صحفيا لجمال الدين قبل نفيه وبعده فيما يقولون (٤٦) .

ويقول الأستاذ « عباس العقاد » ان « أديب اسحاق » كان كاثوليكيا (٤٦). غـير أن بعض الذى قرأناه لا يؤكد تمسـكه بقواعد دينه ، ومن ذلك « ‥ ان الكاهن الذى أحضره أهله ، لاقامة الشعائر الدينية لجنازته ، امتنـع عن مرافقة جثمانه ؛ وادخاله الكنيسة ؛ ما لم يكتب له والده بخطه وتوقيعـه ؛ أن ولده ؛ عاش كاثوليكيا ومـات كاثوليكيا ‥ » (٤٧) وتدبر العقلاء القضـية بالتى هى أحسن ؛ وقام الوالد بما طلب منه ؛ ومشى الدليـل أمام جثة « أديب » الى بيته الأخير ·

وفى هذه الرواية شك يلقى بظله على الجانب الدينى من حياته ؛ وقد شهدنا من قبل ظلالا أخرى من السـلوك تخدش وجه الفضيلة فى بعض ملامحها ، على أن هذا كله قائم بين « أديب » وبين خالقه ، ولله فى خلقه شئون ‥ ·

ولقد كان « جمال الدين الأفغانى » فى باريس يدير مجلته « العروة الوثقى » ـ الصوت العالى للجامعـة الاسلامية ـ يوم أن تلقى نبـأ وفاة « أديب » فكان أن حزن عليه حزنا بالغا ، ونعاه فى مجلته هذه بقوله :

« ‥ غالت نائبة الدهر ؛ طراز العرب ؛ وزهـرة الأدب ، صفينا أديب اسحاق ؛ وترك لنا قلوبا آسفة ؛ وشئونا فائضة ‥ » (٤٨)

وهكذا انطوت صفحة تلميذ من أبرز تلاميذ « الأفغانى وأقربهم الى قلبه وأبرزهم أثرا فى صحافة الاسكندريـة عند نشأتها ·

المراجع المحال اليها فى هذا الفصل

(١) ص ٩٧ جـ ٢ مشاهير الشرق لجورجى زيدان .

(٢) ص ٢٧٣ مجلة الكتاب ١٩٤٨ .

(٣) ص ٢٠٩ جـ ١ مذكرات عرابى .

(٤) ص ٤٥ جـ ١ تاريخ الامام .

(٥) ص ٥٣ مذكرات عبد الله النديم .

(٦) ص هـ من مقدمة كتاب الدرر لأديب اسحاق .

(٧) ص ٥٧ ومابعدها من المرجع السابق .

(٨) ص ٥٣ من مذكرات النديم .

(٩) ص ٧٩ من عبد الله النديم لعلى الحديدى اعلام العرب .

(١٠) ص ٥٣ من مذكرات النديم .

(١١) جمع أحمد سمير ومحمود واصف كتابا من مؤلفات النديم وأسمياه سلافة النديم .

(١٢) ص ٦ جـ ١ من سلافة النديم .

(١٣) ص ٤٥ جـ ١ تاريخ الامام .

(١٤) جريدة مصر، فى ٢٣ نوفمبر ١٨٧٨ ونقلها انور الجندى ص ٢٠ من تطور الصحافة العربية .

(١٥) ص ٥٦ من الدرر .

(١٦) ص ٤٥ جـ ١ تاريخ الامام .

(١٧) العدد ٢٣ من جريدة مصر فبراير ١٨٧٩ ونقلتها مجلة المنار المجلد الثالث ١٩٠٠ ونقلها ابو رية فى كتابه ١٧٧ .

(١٨) ص ٥٥ و ٥٦ من الدرر .

(١٩) المقال بالكامل ص ٦٢ المرجع السابق .

(٢٠) ص ٩٩ من النديم للدكتور الحديدى .

(٢١) التجارة فى ٢٤ يونيو ١٨٧٩ ونقلها انور الجندى فى كتابه أعلام الحرية ص ١٠ مجموعة اقرأ .

(٢٢) ص ٦٩ من الدرر .

(٢٣) ص ٢٣٠ من زعماء الاصلاح لأحمد أمين .

(٢٤) ص ٩٤ ـ ٩٦ التاريخ السرى للاحتلال البريطانى لبلنت .

(٢٥) تاريخ الأفغانى لأبى رية نشر المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .

(٢٦) ص ٨٦ من كتاب الدرر .

(٢٧) المقتطف ص ١١٢ عدد اغسطس ١١١ .

(٢٨) ص ٢١٠ جـ ٢ = من مصر فى عهد اسماعيل لالياس الأيوبى .

(٢٩) ص ٥٤ من مذكرات النديم .

(٣٠) ص ٦٩ من تاريخ الثورة العرابية للرافعى .

(٣١) ص ٢١ من الدرر .

(٣٢) ص ٩ من سلافة النديم .

(٣٣) ص ٥٤ من مذكرات النديم .

(٣٤) عبد الله النديم عدد ٩ من أعلام العرب للدكتور الحديدى .

(٣٥) ص ٩ من سلافة النديم .

(٣٦) ص ٢٥٩ من تكوين الصحف المصرية لقسطاكى عطاره .

(٣٧) ص ٢٥٢ من تاريخ آداب اللغة العربية جـ ٤ لجورجى زيدان .

(٣٨) ص ١٨٦ ج ١ من تاريخ الامام -

(٣٩) ص ٩٧ ج ٢ مشاهير الشرق لجورجي زيدان -

(٤٠) ص ٤١٣ من الفنون الأدبية واعلامها للمقدسى .

(٤١) ص ٢٧ من مجلة الكتاب ١٩٤٨ .

(٤٢) ص ٥٥ من ديوان نسمات الاوراق لخليل اليازجى ،

(٤٣) ص ٤١٤ الفنون الأدبية تاليف انسى .

(٤٤) ص ٧١ من الدرر .

(٤٥) ص ى و من مقدمة الترجمة الموجودة فى الدرر ،

(٤٦) ص ١٣٧ من محمد عبده للعقاد «اعلام العرب» -

(٤٧) ص ٢٧٣ ـ ٢٧٥ من مقالة الكتاب ١٩٤٨ .

(٤٨) ص ٣٤٠ مجموعة مقالات العروة الوثقى .

الفصل الخامس

عبد الله النديم (١٨٤٣-١٨٩٦م)

وصحيفته «التنكيت والتبكيت»

- ابن الاسكندرية
- عاشق النور
- لمحة عن الماسونية
- عبدة الألقاب
- التنكيت والتبكيت
- الاهتمام بالشعر
- العامية فى التنكيت والتبكيت
- الاهتمام بالزجل
- زفاف الحرية
- أيام التنكيت والتبكيت الأخيرة

● ابن الاسكندرية :

كان الأديب السـكندري « عبد الله بن مصباح النديم » يرى – في نفسه – أنه ليس أقل شأنا من أي واحد من قادة هذا الشرق العربي في عصره ، بل انه لايرى نفسه أقل من « جمال الدين الأفغاني » ذاته ، ولا يرى لجمال الدين من فضل الا أنه « سبقه لتشجيع الخائفين »(١) وأنه « ألف حزبا من الشبان ، وجمع اليه بعض الأعيان وبث فيهم روح الوطنية ، وملأ آذانهم بالمفاخر الشرقية » . (١)

على أنه يأخذ على بعض هؤلاء التلاميذ . « الاشتهار بفساد العقيدة ؛ ومعارضة الدين الشديدة » (١) وأن ذلك في نظره ، هو سبب انحراف الكثيرين عن « الأفغاني »(١)

وكان « النديم » قد انتظم في سلك الذين حضروا مجالس « جمال الدين » واستمعوا اليه ؛ لكن شخصيته لم تذب فيه ، كما ذابت شخصيات الكثيرين من معاصريه، فلم يؤثر عنه انه قال في « الأفغاني » ما قاله الامام « محمد عبده » حيث بعث الى « الأفغاني » برسالة طويلة، كنا نود – برغم تقديرنا العظيم للأستاذ الامام – لو ترفع عنها ؛ ذلك اذ يقول في فقرات منها : « ... تناولت

القلم ، لأقدم اليك من روحى ما أنت به أعلم ، فلم أجد من نفسى سوى القلب الأشل ؛ واليد المرتعشة ؛والفرائص المرتعدة ، والفكر الذاهب والعقل الغائب ؛ كأنك يامولاى منحتنى نوع القدرة للدلالة على قوة سلطانك فاستثنيت منه ما يتعلق بالخطاب معك .. » (٢)

وعلى الرغم من أن « جمال الدين » كان يقدر النديم حق قدره ويقول فيه : « ما رأيت مثل النديم طوال حياتى ؛ فى توقد الذهن ، وصفاء القريحة ؛ وشدة العارضة ، ووضوح الدليل ، ووضع الألفاظ وضعا محكما بازاء المعانى ؛ ان خطب أو كتب » (٣) وهى شهادة طيبة فى حق « النديم » المكافح الا أنها لم تجعل «النديم» يغمض عينيه عما يراه من جوانب نقص ، يدرك مدى خطورتها على جوانب الكمال عند هذا الداعية الخطير ، ذلك اذ يقول عن « الأفغانى » :

« انه لو حافظ على العقيدة ؛ ومشى بالناس فى سيرة حميدة ، ونشر دعوته (يقصد السياسية) فى البلاد ـ بما له من الاستعداد ـ لأتى بكل غريب ؛ وقلب الحكومة فى عهد قريب .. » (٤)

● عاشق النور

كان «عبد الله النديم» رجلا يفهمها وهى طايرة « كما يقول السكندريون » ومعنى هذا أنه لا يجوز عليه شىء

من البهرج الذى يلجأ اليه الكثيرون من الراغبين فى احاطة أنفسهم بهالة من الخطورة المتوهمة ، أو العظمة الزائفة . ولذلك لم يجز عليه كثير من المظاهر التى كانت رائجة فى عهده ؛ أو — على الأقل — لم تنل من اهتمامه فوق ما تستحق ...

قيل له ان جمعية « مصر الفتاة » السرية بالاسكندرية هى من أهم الوسائل التى ستقود البلاد الى التحرر ، وذلك بما لها من امكانيات سرية هائلة ؛ فانضم اليها ، ولكنه سرعان ما خرج منها ، وراح يدعو الناس الى العمل فى النور ؛ ذلك لأنه كان — كما يقول الدكتور الحديدى « ... يؤمن بأن الطريق السليم للاصلاح ،هو تنبيه الرأى العام ؛ وتبصير الشعب بما يدور حوله ؛ فتتسع الدائرة ؛ ويصبح العمل جماعيا من الأمة ..»(٥)

وهذا يتم عن طريق تكوين رأى عام من أصحاب المصالح الحقيقية ، وهم سواد الشعب ؛ أو بتعبير النديم نفسه ، فلم أجد طريقا لتنبيه الوجهاء والأمراء الا بعصبية أكونها من الفقراء .. (٦) ومن ثم أنشأ « الجمعية الخيرية الاسلامية » التى لم تكن مجرد جمعية خيرية — كما يبدو من اسمها — وانما كانت مصدر اشعاع سياسى اجتماعى علمى أيضا ، وذلك باقامة مدرسة تابعة لها ، وبكثرة الاحتفالات والاجتماعات التى كانت تقام باسم هذه المدرسة ، وبتوجيه من «النديم» باعتباره مشرفا عليها .

وقد كان يخطب فى كل حفل منها ، فى موضوعات تهم الوطن ، وتعرف بمصالحه ، كما كان يخطب فيها ، عدد من الشبان المثقفين ، الذين أعجبوا بالنديم وحركته ، فاتخذوه لهم رائدا ؛ فى الخطابة والدعوة الوطنية .

● لمحة عن الماسونية :

كذلك دخل « النديم » الماسونية ؛ وخرج ليقول ان من أسباب انحراف الناس عن « الأفغانى » أنه أدخل تلاميذه المحافل الماسونية ، وأنه لزم الصمت تجاه الذين أخذوا عليه هذا الاتجاه .. (٧) .

ويكفى ان يقول « النديم » عن الماسونية هذه الكلمات ، فقد كانت ـ فى ذلك الوقت ـ تتمتع بنفوذ وسطوة وامكانات ، لا تتصورها عقولنا الآن (٨) .

صحيح ان « النديم » لم يوضح لنا شيئا عن أسرار هذه « المحافل » التى لا يمكن قطع الصلة بينها وبين « اليهودية » بعامة و « الصهيونية » بخاصة ؛ وفى هذا تقول تعاليم المجامع الماسونية « ان أعظم واجب للماسونى الأوربى ، هو تمجيد الجنس اليهودى وعبادته ، لأنه حافظ على المستوى الكهنوتى للحكمة .. » (٩)

صحيح ان « النديم » لم يقدم لنا ما كنا نرجوه من توضيح ؛ لكنه يكفي في هذا المجال ، أن ننقل الى القراء ، القسم الذي كان يقسمه « الماسوني » المبتدىء عند دخوله « المحفل الماسوني » لأول مرة ، لنتبين مدى الرهبة، التي كان يعيش فيها كل من اعتنق هذا المبدأ ، وعلى خوف « النديم » وأمثاله من سوء المصير الذي كان يترقبهم لو أن أحدهم ؛ باح بأسرار الماسونية وما يدور في أقبيتها من أشياء لا يجوز أن يعلم بها سواهم ، ويقول نص هذا القسم « ·· اقسم بمهندس الكون الأعظم ، ألا أخون عهد الجمعية ، وأسرارها ، لا بالاشارة ، ولا بالكلام ؛ ولا بالحركات ، وألا أكتب شيئا عنها ، ولا أنشر ، بالطبع أو بالحفر أو بالتصوير ···

وأرضى — ان حنثت بقسمي — بأن تحرق شفتاى بحديد محمى ، وأن تقطع يداى ، ويحز عنقي ؛ وتعلق جثتي ، في محفل ماسوني ، ليراها طالب آخر فيتعظ بها ثم تحرق جثتي ويذر رمادها في الهواء لئلا يبقى أثر من جنايتي ·· » (٩) هذا هو قسم المبتدىء اما اذا تدرج الى مستويات أعلى فهناك قسم آخر ، يجرد الانسان من الولاء لكل شيء ، بما في ذلك الزوجة والأولاد ولا يبقى له الا الولاء للماسونية وحدها (٩) ·

● عبدة الألقاب :

تثقف « عبد الله النديم » نفسه ثقافة حرة ، وهي وان كانت واسعة النطاق ، الا أنه في عرف مجتمعه ؛ لم يتم تعليمه الأزهرى : ومن ثم لم يصبح « سيدنا الشيخ » ولم يشغل وظيفة عالية من وظائف الدولة ، حتى تنحنى له الرءوس اجلالا ، ولم يحصل على رتبة ما من هـذه الرتب التى تميز بعض الناس على سائرهم ؛ فلم يمنحه الحكام لقب « باشا » أو على الاقل لقب « بك » ؛ وانما كان واحدا من أفـراد هـذه الجماهير الكادحة ، يهيم على وجهـه أحيانا فى طلب القوت « ولم يكن فى طبعه ما يشبـه طبع السادة » (١٠) فقد كان أبوه « فرانا » يمتلك مخبزا بأحد أحياء الاسكندرية الشعبية ، وقد كان من قبل نجارا يعمل بترسانة السفن .

وكان مجتمع ذلك العصر ، يؤمن بقيمة أصـحاب الألقـاب ، ويكاد يراهم من طينة أخـرى ، تغاير الطبقة التى خلق منها غيرهم .. فكيف يقل « النديم » عن هؤلاء مقاما أو منزلة فى أعين الناس ؟ وقد أتاه الله بسطة فى القول لم تتح لحملة هذه الألقاب مجتمعين ؟!!

وهنا لجأ « النديم » الى وسيلة ترتفع به الى مكانـة اللقب المنشود والمفقود معا وقد تزيد عليه ؛ فى تقريبه الى قلوب العـامة ، ذلك بأن يدعى انه « أدريسى » من

نسل « الحسن بن على » رضى الله عنه ؛ وبالتالى ينتمى الى « فاطمة بنت رسول الله » صلى الله عليه وسلم ، ومن أقرب من « فاطمة » الى قلوب الملايين من أفراد شعبنا ؟ لا فى « مصر » وحدها وانما فى عديد من الشعوب الاسلامية ؟

انه أصبح – بذلك الادعاء – (١١) شريفا من آل بيت النبى ؛ ومن ثم أصبح لقب « السيد » علما عليه ؛ يرفعه الى مصاف حملة الألقاب ؛ ويستطيع أن يقول بمقتضاه ، ما قاله الشاعر القديم :

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم
اذا جمعتنا يا جرير المجامع

وأعتقد أنه ما كان فى حاجة الى كل هذا الافتعال ؛لولا الحاح متطلبات عصره ، فانه لن يرفع الخامل لقبه ، وقيمة كل امرىء ما يحسنه ؛ وصدق الله تعالى اذ يقول :

« .. ولا تزر وازرة وزر أخرى . وان تدع مثقلة الى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى » (١٢)

***

• التنكيت والتبكيت :

وكان « النديم » – كما سبق أن بينا – قد عمل بصحف « أديب اسحاق وسليم نقاش » « مصر والتجارة

والمحروسة ، والعصر الجديد » وشق الطـــريق بقلمه الى افهام القراء ؛ كما شقها بصوته الى أسماع الجماهير ؛ مهما اختلفت ميولهم وثقافتهم ولهجاتهم ، وكان كذلك قد آمن بماله من مقدرة على تهم رغبات الناس ، والتعبـــير عنها بما يرضيهم ، ويشـــبع تطلعاتهم ، قديرا على اللعب بعواطفهم ، وادخال ما يشاء من آراء ونظـرات الى عقولهم بلا عقد تصنعها الثقافة المتعالية عليهم ، ومن هنـــا كان اختيـــاره لميدان الصـــحافة الحرة ، تلك التى يملك هو مقدراتها ، لا يسيطر عليها سواه ، وكان أن أســـمى المجلة التى يزمع اصدارها « التنكيت والتبكيت » واتفق مع « ســـليم نقاش » على أن يطبعها فى مطبعة جريدة « المحروسة » التى يملكها « النقاش وشركاه » .

وعلى هذا صدر العدد الاول من مجلة « التنكيت والتبكيت » بالاسكندرية فى اليوم الســـــادس من يونيو ١٨٨١ باعتبارها أسبوعية فى ١٦ صـــــفحة من القطع المتوسط ؛ وتعتبر ـ هذه الجريدة ـ أول صحيفة مصرية لحما ودما وولاء للاسكندرية ...

وقد بين « النديم » منهجها فى افتتاحية العدد الأول منها بقوله :

« .. هى صحيفة أدبية ؛ تتلو عليك حكما وآدابا ومواعظ وفوائد ومضحكات ، بعبارة سهلة ، وتصـــور الحوادث والوقائع فى صور ترتاح اليها النفس ، ويميل

اليها القلب ، يخبرك ظاهرها المستهجن ، أن باطنهـا له معان مألوفة ؛ وينبهك نقابها الخلق ، بأن تحته جمـالا يعشق ؛ هجزها تنكيت ؛ ومدحهـا تبكيت ، فلا تظن مضحكاتها هزوا بنا ، فما هى الا نفثات صدور ، وزفرات يصعدها مقابلة حاضرنا بماضينا ‥ » (١٣)

ثم يتحدث عن لغتها فيقول انها « ‥ لغة ألفنـا المسامرة بها ، لا تلجىء الى – قاموس الفيروزبادى – ‥ ولا تضطر لترجمان يعبر عن موضوعها ؛ ولا شيخ يفسر معانيها ؛ وانما هى فى مجلسك كصاحب يكلمك بما تعلم؛ ونديم يسامرك بما تحب وتهوى ‥ »

* * *

● اللغة العربية فى التنكيت والتبكيت

و « النديم » من كبار الداعين الى التمسك بالعربيـة الفصحى ، ومن أحسن الكاتبين بها أسلوبا ، وهـو يرى « أن العربى اذا أضاع لغته ، أضاع وطنه ودينه » وأن اضاعة اللغة هى تسليم من الانسان فى ذاته ‥ ، ويدافع عن اللغة العربية تجاه المدنية،ويرى انها كفيلة بمتطلباتها فيقول فى حماسة دافقة « بم تستبدل لغتك ؛ وما لهـا من مثيل ؟ وما الذى استحسنته فى غيرهـا واستقبحت مقابله فيها ؛ وأى شىء طلبتة فيهـا ، ولم تجـد له اسما ‥ » (١٤) .

ولعل « حافظ ابراهيم » نظر الى هذا المعنى حين قال على لسان هذه اللغة :

رمونى بعقم فى الشباب وليتنى
عقمت فلم أجزع لقول عداتى (١٥)

وينطلق «النديم» فيقول :

« .. ترى انك في عصرتمدن يقضى عليك باستعمال أرقى اللغات لسهولة التركيب ، وعذوبة اللفظ ، ورقة المعنى .

ناشدتك الله .. أوجدت فى اللغات الحديثة ما اشتملت عليه لغتك القديمة ؟ أم رأيت حسنا فى اللغات التى تنقح كل يوم ؛ لم تره فى لغتك الفطرية الخلق ؟ أظنك فى احتياج لفهم سر اللغة ، ومعرفة ما يترتب على ضياعها ؟!

لا تثريب عليك !!

فهذا أمر لا يبحث فيه آلا بعيد الغور فى حساب العواقب ؛ شديد الحرص على بقاء الهيئة الاجتماعية» (١٤)

ذلك بعض الذى كتبه«النديم » فى التنكيت والتبكيت، دفاعا عن اللغة العربية ؛ ومنه يتضح قوة ايمانه بها وتفانيه فى الذود عنها ...

ثم اقرأ له هذه الفقرة ؛ من مقال عن قضية الفلاح،

نشره بهذه المجلة ، يخاطب فيه طبقة الاقطاعيين الذين كانوا مستأثرين بكل شيء ، ولا يقيمون لفلاحيهم وزنا ، وقد اخترناها مكتوبة بالفصحى حتى تكتمل لنا صورة تعامله بها ؛ ذلك حيث يقول :

« .. تعال فانظر .. الى سلم رفعتك ، ومعدن حياتك ؛ ونبع ثروتك ؛ (أخيك) ـ أستغفر الله ـ خادمك .. الفلاح .. انظر الى ثوبه المهلهل ؛ ولبدته التى لا تستر يافوخه ، ورغيفه الذى لا تكسره قوتك ؛ ومشه الذى تعاف النظر اليه ، وارقبه وهو يزرع ، والطين الى فخذيه ؛ والشمس تشوى وجهه وجسمه ؛ يقطع يومه فى عذاب وعمل ؛ انه صاحب الفضل عليك ؛ وأنت لا تنظره الا بعين المقت ؛ ولا تعامله الا بيد الاهانة ولسان السباب .. » (١٦)

* * *

● الاهتمام بالشعر :

وبطبيعة الحال اهتم « النديم » بالشعر ، ومن المعروف عنه انه شاعر مكثر ؛ ومن أمثلة اهتمامه هذا ؛ انه نشر بالمجلة عديدا من القصائد التى تلهب الاحساس بالكرامة ، ونختار هنا مقطوعة من شعره ؛ أنشدها تلاميذ الجمعية الخيرية الاسلامية ؛أمام « الخديوى توفيق» فى تقديم مسرحية من وضعه ، بعنوان « الوطن » على مسرح

« زيزنيا » وفى هــذه القصــيدة ما فيهــا من اثارة المشـــاعر ، ومن توجيهات مباشرة للخديوى ، تصـــل أحيانا الى حد المساس به واليكم هذا الجزء من هــذه القصيدة :

« أنوار عدلك تهـدى حى نادينـا
وحسن سيرك للعليا ينادينـــا

لكننا فى طــريق ضل سـالكه
فمن يدل الى الحسنى ويهدينـــا

هل فى القصور رجال غير من عظموا
بما لدينا وكانوا من مواليـنـــا

قل للنفوس التى ماتت بلا أجــل
أين القلوب التى كانت تجارينــا

أين العلوم التى كانت توصلنـــا
باب السعود فصارت من أعادينــا

أين الصنائع ؛ أين العارفون بها
أين الديار التى كانت لأهلينـــا

استودع الله قومـــا كان طبعهمـــو
يبدى لك الحالتــين البأس واللينا

شدوا الجياد وجابوا كل بادبــة
كى يعمروها فعموا الأرض تمدينــا

واستخلفونا فكنا شر من ورثوا
اذ لم نحافظ على ملك بأيدينا » (١٦)

● العامية فى التنكيت والتبكيت

الى جانب هذه العاطفة المتوهجة ، والحماسة المتأججة ، للفصحى من « النديم » فانه يرى ؛ أن رسالته الصحفية ؛ والتبعات الاعلامية الملقاة على عاتقه ؛ وما يراه من أمانة الثقافة التى يجب على المثقف أن يحملها الى جميع فئات بنى قومه ؛ كل هذا يقتضى توصيل آرائه وأفكاره ، الى أولئك المقيمين فى النجوع والقرى والحارات والأزقة ؛ من هؤلاء الذين يعجزون عن متابعة الفصحى فى تساميها؛ عندئذ يهبط « النديم » بالقول درجات حتى يستطيع أن يمس الوتر المرتجف فى قلوب الجميع ٠

بل اسمعه ؛ وهو يتناول بالنقد بعض الذين يتعالون عليها بسبب من ثقافة أجنبية عاشوا فيها حينا من الدهر ، ففى مقال له نشره بالعدد الأول من هذه المجلة ، فى موضوع « عربى تفرنج » ويدور حول قصة شاب أرسلته الدولة فى بعثة دراسية الى فرنسا ، فعاد أفرنجيا متمردا على قوميته وتقاليد بلاده ، وبالتالى على لغته ؛ وهذا جزء من الحوار الذى أجراه « النديم » على لسان « زعيط » المبعوث و « معيكة » والدته عندما قدمت له « طاجن لحم بالبصل » للغداء نقدمه كنموذج للحوار باللهجة العامية عند « النديم » ومعالجته لأمثال هذه المواضيع التى شاعت أسبابها أيامئذ :

زعيط : ليه كترت من ال

معيكة : من ال ايه يا زعيط ؟

زعيط : من البتاع اللى اسمه ايه ٠٠ !!

معيكة : اسمه ايه يا بنى ؟ ٠٠ الفلفل ٠٠ ؟

زعيط : نو ٠ نو ال دى ال بتاع اللى ينزرع ٠

معيكة : الغلة ٠٠٠ يا ابنى ؟!

زعيط : نو ٠٠ نو ٠٠ اللى يبقى له راس فى الأرض

معيكة : والله يا بنى ما فيه ريحة التوم

زعيط : البتاع اللى يدمع العين ٠٠ اسمو « اونيون »

معيكة : والله يا ابنى ما فيه « اونيون » ولا ٠٠ ولا ٠٠ واللحم ببصل

زعيط : سا ٠٠ سا ٠٠ بصل ٠٠ بصل ٠

معيكة : دى يا زعيط يا ابنى ٠٠٠ نسيت البصل !!؟ وانت كان أكلك كله منه ٠٠ ؟! » (١٧) ٠

والمقال طويل ؛ ويبين مدى الجريمة التى يرتكبها أمثال هؤلاء فى حق وطنهم ولغته ٠

على ان « النديم » لم ينس فى ختام هذا المقـــال أن يبين ما لأصحاب الفضل من فضل ؛ وأن يذكر بعض أسماء الذين تعلموا بالخارج ، ثم كانوا أحرص ما يـكون على لغتهم وقوميتهم عندما عادوا الى بلادهم (١٧)

● الاهتمام بالزجل :

كذلك حرص « النديم » على الاهتمام بالزجل ؛ اذ هو زجال بارع ، بحيث يمكن اعتباره قمة زجالى عصره وله فيه نوادر مشهورة ، وكان أن نشر — فى مجلته هذه — بعض الأزجال ذات الأهداف الاجتماعية ، ومن بينها زجل طويل يعيب فيه — على بعض المصريين — التقليد الأعمى للغربيين وقتئذ ، والارتماء فى أحضان المرابين الأجانب لتغطية اسرافهم ومطلع هذا الزجل قوله :

« أهل البنوكه والأطيان
صاروا على الأعيان أعيان
وابن البلد ماشى عريان
ممعاه ولا حق الدخان
شرم برم حالى غلبان

ومن هذا الزجل قوله :

الحق عندك ياخويا
ياللى طليت وشك بويه
ولبست سروال أبو أويه
ومشيت تقلد النسوان
شرم برم حالى غلبان

ثم يعدد كثيرا من النقائص والعادات التى ابتلى

بها المصريون فى ذلك العهد ويبين مضارها ؛ ويختتم زجله بهذه الفقرة التى تصف أجمالا ، ما آلت اليه حـــالة بلادنا :

شـوف الجهـاله يا سيدنـــا
اللى احنـــا جبناهــــا بايدنا
حتى صبحنـــا يوم عيـــدنا
نســـمع بلادنـــا تنشــــدنا

شرم برم حالى غلبـــان ٠٠ (١٨)

* * *

● زفاف الحرية

ظلت « التنكيت والتبكيت » بالاســكندرية تضىء الطريق أمام الثورة ؛ حتى كان اليوم التاسع من سبتمبر ١٨٨١ يوم أن وقف الجيش وقفته المجيدة فى ســـاحة قصر « عابدين » والتقى الشعب ممثلا فى « أحمد عرابى » بالطغيان التركى ممثلا فى « محمد توفيق » ويومها لم يبرح « عرابى » ساحة القصر ؛ حتى استجاب حاكمه الى مطالب الأمة التى قدمها « عرابى » فى بيانه المشهور ٠

وكان أن أقيل « رياض باشا » وكلف شريف باشـا برياسة الوزارة والعمل على تحقيق هذه المطالب جميعا ٠

وكان ان كتب « النديم » مقالا على لسان « مصر »

بعنوان « زفاف الحرية فى مصر » تحدث فيه عن الظلم والاجحاف اللذين حاقا بأبنائها فى عصر « اسماعيل » ؛وعن نهب الأجانب لثروتها ؛ واخفاق « توفيق » فى معالجة الأمور ؛ ثم تحدث حديث الفخور بثورة جيشها ، وحصوله على حقوقها ، ذلك ما يصوره لنا النديم خلال قوله على لسانها ، وهو قول فيه التصريح المباشر أحيانا والتلميح الرمزى أحيانا أخرى :

« .. لقد كنت فى يد الخائنين مصابة بأمراض أفرنجية ، أوقعنى فيها أميرى السابق ؛ فجلبت على من الشرور ما لم يقبل به أحد غيرى ؛ فجلست أبنائى حولى تئن وتبكى ، وتندب رجال المجد والشرف ؛ وتنادى على هؤلاء الظلمة بالويل والثبور ، وتضرب بالكف ندما، وتمشى الهوينا فى الطريق عدما ؛ قد ذهبت أملاكها بلا مناوشة ولا قتال ،وأصبحت بين الغرباء كالأجير أو كالخادم المستبعد ؛ فما رأيت من قصر لطيف فذاك « للموسيو » وما نظرت من جفالك وأباعد ؛ فهذا « للمستر » ، وما بلغك من بنك ومتجر فهذا « للخواجة » ، وما سمعت من رفعة وانعام فهذا « للسنيور » .

وقد صار « الاسطاف » عندنا مهندسا ؛ و « المزين » طبيبا،وخادم الخيل رئيسا وذليل بلاده عزيزا ؛ وطريدها محبوبا؛وأهلى يجاهدون فى خدمتى ،فتدركهم جهالة أمرائى

بالهزيمة ويرفعون رءوسهم جهة العلو ، فتظلم عليهم سحب الغفلة ، وتحجب عنهم شمس الحرية المنيرة .

فلما سرى الداء في عروقى مع دمى ؛ تضرعت الى الله تعالى ؛ فزحزح عنى هذا التائه فى آماله ؛ الغريق فى شهواته ، (يقصد اسماعيل) ورزقنى بالمولى التوفيقى (يقصد توفيق) فارتفعت اليه أبنائى تطاولا واستنجادا وتعلقت به الآمال ؛ فاختار (حفظه الله) للقبض على أزمة الأمة ، أناسا منهم البار والفاجر ، فجعلوا أبنائى خلف ظهورهم ؛ وملأونى بقبعات وطراطير ؛ وهادوا بكثير من أرضى ، وأنعموا بجليل من مالى ، وشردوا العظماء من أهلى وأخمدوا الأنفاس ؛ وأماتوا الهمم الوطنية ، وأحيوا القوة الأجنبية ؛ فأرضى ؛ ملك لأوضاع (جمع وضيع) لا يملكون القوت فى بلادهم ، وادارتى أجنبية محضة ، بيد من لا يعرف لغتى .. » (١٩)

ثم تناول المقال ، الاجتماعات التى تمت بين زعماء الثورة حتى انتهى أمرهم الى وقفة ٩ سبتمبر التاريخية التى تحدث عنها « النديم » على لسان مصر فقال :

« .. ولم تمض برهة من هذا السعى ، حتى تظاهر الفرسان ، وظهرت الأبطال ، وتعاهدوا على الموت فى حفظ البلاد من العدو ، ووقاية (الأمير) من تسلط الغير ، وحملوا حملة الأسود ، حتى كسروا قوائم عرش الظلم ، وخسفوا بيت البغى والفجور ، ووقفوا بين يدى أميرهم أسودا يحمون

غابه ويدفعون عدوه ؛ ولم يريقوا فى هذا الخطب قطرة دم ، بل حاربوا بالرعب ، وانتصروا بالحق ٠٠ » (١٩) ٠

* * *

● أيام التنكيت والتبكيت الأخيرة

أصبح « عبد الله النديم » هو الممثل الاعلامي للثورة العرابية سواء بالكلمة المكتوبة فى جريدته ؛ أو بالكلمة المنطوقة بين الجماهير في المحافل العامة وكان أن « أحمد عرابى » ــ زعيم الثورة ــ اختار مجلة « النديم » التنكيت والتبكيت ؛ لتكون لسانا رسميا للثورة ، على أن يستبدل باسمها اسما آخر هو « لسان الأمة » لكن « النديم » فضل أن يكون اسمها الجديد (الطائف) اما لأنه كان وقتئذ يطوف بالبلاد ، داعية لا يهدأ ولا يستقر ؛ نافخا في القرى والمدن من روحه الثائرة ؛ واما تيمنا باسم (الطائف) المدينة الحجازية المعروفة ٠٠٠

وكان ان انتقلت ادارة المجلة الى « القاهرة » ومن ثم صدر العدد الأول من (الطائف) البديلة فى اليوم العشرين من نوفمبر سنة ١٨٨١ وبذلك انطوت صفحة « عبد الله النديم » الصحفية بالاسكندرية لتستقر فى العاصمة الى حين ٠٠٠

المراجع المحال اليها فى هذا الفصل

(١) ص ٥٢ من مذكرات النديم ٠

(٢) ص ٥٩٩ ـ ٥٦٠ ج ٢ تاريخ الامام وص ١٣٣ من محمد عبده للعقاد ـ اعلام العرب ٠

(٣) ص ١٤٣ بناة النهضة العربية لجورجى زيدان وص ١٧ من سلافة النديم ٠

(٤) ص ٥٣ من مذكرات النديم ٠

(٥) ص ٨١ من عبد الله النديم للحديدى ٠

(٦) ص ٤٩ مذكرات النديم ٠

(٧) ص ٥٣ نفس المرجع ٠

(٨) راجع حادث تمرد ٢٥٠٠ جندى وضابط من جيش اسماعيل وتدخل الماسونية للافراج عن قادة هذا التمرد فى هامش ص ٨٦ من مصر والمسألة المصرية للدكتور احمد عبد الرحيم مصطفى ٠

(٩) ص ١٦٤ من كتاب الصهيونية فى التاريخ لصابر عبد الرحمن طعيمة ٠

(١٠) ص ٢٧ ج ١ من المعلوم والمجهول لولى الدين يكن ٠

(١١) نفس الصفحة من المرجع السابق وص ١٧ من أعيان القرن الثالث عشر لأحمد تيمور ٠

(١٢) آية ١٨ سورة فاطر ٣٥ من القرآن الكريم ٠

(١٣) العدد الاول من التنكيت والتبكيت ٠

(١٤) ص ٩٢ من سلافة النديم نقلا عن التنكيت والتبكيت .

(١٥) الجزء الاول من ديوان حافظ ابراهيم قصيدة على لسان اللغة العربية .

(١٦) العدد الثامن من التنكيت والتبكيت .

(١٧) العدد الاول من التنكيت والتبكيت .

(١٨) العدد العاشر من التنكيت والتبكيت .

(١٩) التنكيت والتبكيت نقلا عن المذكرات .

للتوسع فى حياة النديم راجع السيرة القيمة للنديم التى كتبها الدكتور على الحديدى ونشرها فى سلسلة اعلام العرب .

الفصل السادس

وصحف أخرى

١ ـ الاتحاد

٢ ـ البرهان

٣ ـ الاعتدال

- بقية الصحف
- ماذا يقول الشيخ حمزة
- عبد الله النديم وحمزة فتح الله
- شاعر سبقه زمنه
- وبعد

● بقية الصحف

لم تبق من صحف الاسكندرية فى هذه الفترة ؛ التى بدأت ببداية أول جريدة شهدتها الاسكندرية سنة ١٨٧٣ وانتهت بنهاية الثـــورة العرابية ١٨٨٢ الا ثلاث صحف هى : الأولى « الاتحاد المصرى » وقد أنشأها الصـــحفى السورى « روفائيل مشاقة » سنة ١٨٨١ أسبوعية ، وقد ابتعد بها عن العنف السياسى ؛ وان أعلن صاحبهـــا عن جريدته أنها « سياسية أدبية تجارية » ولهذا استطاعت أن توالى الصدور مدى ثلاثين عاما تقريبا (١) .

وكانت الجريدة الثانية هى « البرهان » وهذه أصدرها « معوض محمد فريد » وعهد برياسة تحريرها الى الشيخ « حمزة فتح الله » اللغوى المشهور ؛ وقد صدرت سنـــة ١٨٨٢ على أن تكون اسبوعية الا أنها لم تعش فقد اختفت بعد بضعة أعداد .. (١)

أما الجريدة الثالثة فكانت « الاعتدال » وقد حررهـــا « الشيخ حمزة فتح الله » أيضا .. وهذه سنقف عندهـــا وقفة قصيرة نفصل فيها الحديث ، عنها ؛ وعن ظروف اصدارها ...

ذلك ان « الخديوى محمد توفيق » كان هو الذى أوحى بها ؛ وأنفق عليها ، لتكون لسانا له ؛ ومدافعة عنه ؛ أمام الجماهير التى أشعلت الثورة العرابية غضبتها عليه ، وقد

كان الخديو ــ وقتئذ ــ فى سرايه بالاسكندرية محتميـــا بالأسطول البريطانى من غضبة الجماهير الساخطة ...

وكان أن قام الشيخ « حمزة فتح الله » بما عهد اليه على أكمل وجه يريده الخديوى القابع خلف الجدران ...

* * *

• ماذا يقول الشيخ حمزة ..

استجاب « الشيخ حمزة » لتوجيهات سيده ، فدعا الى عدم مقاومة « الانجليز » بل تســهيل مهمة احتلالهم للبلاد ؛ وتوطئة أرض الوطن لهذا الغزو الغادر .

وكان مما كتب ؛ مقالات طويلة نشرها فى « الاعتدال» نقتطف من واحدة منها،بعض الفقرات التى تدل علىسائرها كنموذج لما كان يبثـــه قلمه من سموم قاتلة فى نفوس المواطنين أيامئذ ؛ ذلك حيث يقول :

« ... واعلموا أيها المصريون ؛ ان زيادة نفـــوذ الأجنبى فى بلادكم تكون بقـــدر ما يخسره فى شأنه من الأموال والدماء ، بمعنى أنه لو أنفق عليها من المال درهمين أو أراق من الدم قطرتين ؛ كان نفوذه عليها أكثر ممـا لو أنفق درهما واحدا ، أو أراق قطرة دم واحدة ، وهـكذا كلما زاد فى الخسارة ؛ زاد في النفوذ ؛ فان كان لكم ما تخافون عليه من دين وعرض ومال ووطن ، فقللوا تلك

الخسائر ما استطعتم ولا وسيلة لذلك الا ـ بالقبض على العرابيين ـ ليستسلموا ، أو يفروا فتستريح منهم البلاد والعباد .

ولا أزال أقول لكم ، ان الانجليز لا قصد لهم سوى اعادة الراحة ، واخضاع الجند للحاكم الشرعى (نائب أمير المؤمنين). وان الجناب الخديوى ، هو على الجانب العظيم من التقـــوى !! ومن الدين !! ولا تجهلون أيضا أن الجانب الخديوى ليس أول من نصر بغير دينه !! » (٢) .

الى آخر هذا الكلام الذى لا صلة له بالدين أو بالوطنية من قريب أو بعيد ...

* * *

● عبد الله النديم وحمزة فتح الله

وقد أثار هذا التبجح ثائرة « عبد الله النديم » الداعية الأول فى هذه المعركة من المعارك الكبرى التى تعـــرض لها هذا الوطن ، فكان أن أرسلها « النديم » شواظا تنبض سخرية بالشيخ المأجور ، على الرغم من الصداقة الوثيقة التى ربطت بين شبابيهما بالاسكندرية (٣) .

وقد بدأ « النديم » هجومه ، فى أول عدد من أعـداد (الطائف) التى أصدرها بالقاهرة ؛ فحقر من هذه الصحيفة أمام المصريين ، وحذرهم من قراءتها بأسلوبه الساخر ،

الذى يتمشى مع النكتة التى يألفهـــا المصريون ، حتى فى اشتداد الأزمات ومن هذه التحذيرات قوله :

« انه (يقصد الشيخ حمزة) يذم المصريين ، ويتمدح بالانجليز وأعمالهم ، كما يتمدح بأشقى الخلق (يقصـد الخديوى) .. فنحن نحذر اخواننا المصريين من مطالعـة تلك الوريقة ؛ التى تطبع فى مطابع (الاجبشيان غازيت) فى المركب ؛ ويعرض ما يكتب فيها على سيمور (قائـد الاسطول الانجليزى المهاجم) قبل طبعه .. » (٤)

على أن الذى يلفت النظر هنا ، أن أسلوب الشيخ « حمزة » فى مقالاته هذه ، بلغ الغاية فى السهولة والوضوح مع أن المشهور عن أسلوبه ؛ أنه كان مستغلقا حتى على كثير من المختصين ، اذ كان الشيخ فى كتابته ؛ يبحث عن حوشى الـــكلام وغريبه ، ويتصـــيد صعبه ، وينقب عن مهجوره .

وننقل هنا « ملاحظة » كتبها الشيخ « حمزة » وكان وقتئذ مفتشا أول للغة العربية ؛ فى كراس أحد المدرسين يقول الشيخ حمزة فى هذه الملاحظة :

« .. لم أرد بذلك التدميج الا الرعوى على النشء ، فان قلا مع حفظ المبنى وفهم المعنى ، خير من كثر يطوح بهم فى موامى النبت .. » (٥) .

* * *

● شاعر سبقه زمنه

ولقد قالوا ان الشيخ « حمزة » هذا كان شاعرا ، وأقول انى لم أقرأ له غير قصيدة واحدة اقترنت باسمه فى أى مرجع أعطى له هذه الصفة ، وهى قصيدة طويلة ، تبلغ ١١٧ بيتا ؛ كان قد ألقاها فى مؤتمر العلوم الشرقية الذى انعقد « باستوكهلم » فى سبتمبر ١٨٨٩ موفدا ضمن وفد الحكومة المصرية ؛ وشهد المؤتمر يومئذ حوالى ٥٠٠ عضو فى مقدمتهم ملك السويد والنرويج ، اذ كان المؤتمر تحت رعايته ، وألقى الشيخ هذه القصيدة التى تقول الأبيات الخمسة الأولى منها :

« حمد السرى يا أخى العود والناب
أنساك وعثاء اغباب واخباب

فأنت ان هودت وجناك أو وخدت
فما حماداك الا حمد أغباب

فالمرء أن يحمد الاصدار عن نهل
فالعود أحمد ايرادا لمنتاب

حيا الحيا مهرة عنى ؛ وأينقها
بصالح من أجش الصوب مسكاب

ولا ذوى بهجير عشب خلتها
يوما ولا حمضها من بين أعشاب » (٦)

***

والحق انى أعتقد أن أغلب الأعضـاء المصريين الذين حضروا هذا المؤتمر ، لم يفهموا غير القليـل من مفردات هذه القصيدة فضلا على وفود الأمم الأخرى .

● وبعد

فهذه هي المسيرة الأولى للصحافة العربية بالاسكندرية عرضناها فى ايجاز يقتضيه الحجم المقدر لهذا الكتاب ؛ لكننا نعتقد أننا ــ برغم هذا الايجاز ــ لم نخل بالموضوع ؛ ولقد تعرضنا خلاله لعدد من رواد الصـحافة بالمدينة ؛ الذين قادوا هذه المسيرة ، مبينين مالبعضهم من فضل ، وما على بعضهم من مؤاخذة ، ومن قام منهم بالأمانة ، ومن تنكب منهم سواء السبيل ؛ غير ناظرين فى ذلك الا الى الحقيقة وحدها ؛ فلم نغتر بالبهرج الذى أضيف الى الكثيرين ؛ ولم نجحد فضلا ، كان يستحقه من أسند اليه ؛ بل حاولنا ــ ما وسعتنا الطاقة ــ ان نعرض لهؤلاء الرواد ؛ كما كانوا فى حياتهم ؛ بحيث نراهم مجردين من كل الأردية التى صنعها السخط عليهم . أو الرضى عنهم ؛ عبر السـنين الطويلة التى باعدت بيننا وبينهم ، حتى اختلط الشـك باليقين ؛ وتغشى ضباب الباطل أضواء الحق .

ولقد نعلم أن حديثنا سيجرح شعور الكثيرين ، ممن عاشوا على الاحترام الكامل لبعض هذه الشخصيات ؛ ولهم نقول ؛ اننا مثلهم فى تقديرنا لكفاح هؤلاء جميعا ؛ ولكن

« أرسطو » أجاب الذين لاموا عليه ، ان نال من «افلاطون» ـ وهو أستاذه ـ فى بعض آرائه ؛ فكان قوله : « صحيح أنى أحب أفلاطون ، ولكنى أحب الحق أكثر منه » وبعبارة أخرى « اذا اختلف الحق وأخى فأنا مع الحق » وتلك هى نفس اجابتى ؛ لكل الذين يعتبون على أن قدمت هـــذا الحديث .

على أنى لا أدعى العصمة ؛ ولا أقول الا ان ما قدمته فى هذا الكتاب ، انما هو خطوة فى الطريق ؛ وأنى أقدمت عليها بنية حسنة ، وليس أحب الى ؛ والى كل باحث بحق من قبل ومن بعد ؛ أن تتضح الحقيقة التى هى هدفنـا جميعا .

وما توفيقى الا بالله ؛ عليه توكلت ـ وهو حسبى ـ واليه أنيب ؟

الاسكندرية

عبد العليم القبانى

المراجع المحال اليها فى هذا الفصل

(١) ص ٢٦٠ من تكوين الصحف المصرية لقسطاكى عطاره

(٢) ص ١٨٦ ـ ١٨٧ جـ ٥ من مصر للمصريين لسليم نقاش ·

(٣) ص ٥ جـ ١ من سلافة النديم ·

(٤) مجلة الطائف فى ١٨٨٢/٨/٤ ونقلها د· الحديدى فى عبد الله النديم ص ٢١٩ ·

(٥) الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه للشيخ أحمد السكندرى والشيخ مصطفى عنانى ترجمة (حمزة فتح الله) ·

(٦) ص ١٨٦ من المواهب الفتحية للشيخ حمزة فتح الله ·

تعريف عام بمراجع هـذا الكتاب

المؤلفون بترتيب اسمائهم الألف بائي وأسماء مؤلفاتهم :

١ ـ الدكتور ابراهيم عبده

◆ تاريخ جريدة الأهرام فى ٧٥ عاما ـ ط المعارف ١٩٥٠ مصر

◆ الصحفى الثائر يعقوب صنوع ـ ط روزاليوسف مصر

٢ ـ الدكتور أحمد احمد الحته

◆ تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر

٣ ـ الدكتور احمد امين

◆ زعماء الاصلاح فى العصر الحديث ١٩٤٨ مصر

٤ ـ أحمد تيمور

◆ تراجم اعيان مصر نشر عبد الحميد حنفى ١٩٤٠ القرن الثالث عشر الهجرى وأوائل القرن الرابع عشر مصر

٥ ـ أحمد السكندرى وزميله

◆ الوسيط فى الادب العربى وتاريخه « عدة طبعات » مصر

٦ ـ أحمد سمير

◆ مقدمته لكتاب سلافة النديم ١٩١٤ هندية ـ ط ٢ مصر

٧ ـ أحمد شوقى

◆ الجزء الثانى من الشوقيات (عدة طبعات) مصر

٨ ـ د. أحمد عبد الرحيم مصطفى

◆ مصر والمسألة المصرية المعارف ١٩٦٥ مصر

٩ ـ أحمد عرابى

◆ كشف الستار عن سر الأسرار جزآن ـ طبع الهلال مصر
ويذكر فى البحث باسم «مذكرات عرابى»

١٠ ـ أديب اسحاق

◆ «الدرر» مجموعة من مقالاته اختيار عونى اسحق ـ ط اسكندرية
١٨٨٤

١١ ـ الياس الأيوبى

◆ تاريخ مصر فى عصر اسماعيل دار الكتب مصر ٧٢٣

١٢ ـ الياس زاخورا

◆ السوريون فى مصر القاهرة ١٩٢٨

١٣ ـ الياس قرآلى

◆ السوريون فى مصر القاهرة ١٩٢٨

١٤ ـ أمين سامى باشا

◆ تقويم النيل المجلد الأول من الجزء الثالث دار الكتب ١٩٣٦

١٥ ـ انور الجندى

◆ اعلام الحرية (مجموعة اقرأ) المعارف
◆ تطور الصحافة العربية ـ ط الرسالة مصر ١٩٦٧
◆ الشبهات والأخطاء الشائعة (بدون تاريخ) مصر

١٦ ـ أنيس المقدسى

◆ الفنون الأدبية وأعلامها ـ ط بيروت

١٧ ـ بلنت = ترجمة عبد القادر حمزة

◆ التاريخ السرى للاحتلال البريطانى

١٨ ـ جمال الدين الافغانى ومحمد عبده

◆ مجموعة مقالات العروة الوثقى طبع البستانى مصر ١٩٥٧

١٩ ـ جورجى زيدان

◆ تاريخ آداب اللغة العربية الجزء الرابع ـ ط الهلال

١٩ ـ جورجى زيدان

◆ مشاهير الشرق جزآن

١٩ ـ جورجى زيدان

◆ بناة النهضة العربية ـ ط الهلال

٢٠ ـ حافظ ابراهيم

◆ الجزء الأول من ديوانه طبع الوزارة

٢١ ـ حمزة فتح الله

◆ المواهب الفتحية فى علوم اللغة العربية ـ ط الاميرية ١٩١٢

٢٢ ـ خليل اليازجى

◆ ديوان نسمات الأوراق

٢٣ ـ سليم تقلا

◆ نبذة من ديوانه ـ ط الاهرام الاسكندرية ١٨٩٣

٢٤ ـ سليم نقاش

◆ مصر للمصريين الجزء الخامس ١٨٨٣ اسكندرية

٢٥ ـ صابر عبد الرحمن طعيمة

◆ الصهيونية فى التاريخ

٣٦ ـ عباس محمود العقاد

◆ محمد عبده (اعلام العرب)

٢٧ ـ عبد الباسط محمد عوض

◆ رسالة ماجستير مخطوطة عن الافغانى محفوظة بمكتبة كلية آداب الاسكندرية ١٣٠ ـ ١٣١ س

٢٨ ـ عبد الرحمن الرافعى

◆ الثورة العرابية ـ ط ١٩٤٩

٢٨ ـ عبد الرحمن الرافعى

◆ عصر اسماعيل جزآن

٢٩ ـ عبد العليم القبانى

◆ الافغانى فى مصر نظرة موضوعية (مخطوط)

٢٩ ـ عبد العليم القبانى

◆ فصل عن حمزة فتح الله ضمن كتاب «الشعراء السكندريون الذين ينتمون الى أصول مغربية» (مخطوط)

٣٠ ـ عبد الله النديم

◆ مجلة التنكيت والتبكيت : بعض اعدادها محفوظة بمكتبة بلدية الاسكندرية

٣٠ ـ عبد الله النديم

◆ سلافة النديم مجموعة مقالات جمعها احمد سمير ومحمود واصف هند ـ مصر ـ ط ٢ ـ ١٩١٤

٣٠ ـ عبد الله النديم

◆ تاريخ مصر فى هذا العصر ونشر أحمد محمد خلف الله ويذكر فى هذا البحث بعنوان مذكرات النديم وتقول الدكتورة نفوسة زكريا سعيد فى كتابها عن النديم انه الجزء الثالث من كتاب النديم كان ويكون (مكتبة الانجلو ١٩٥٦)

٣١ ـ عزيز زند

◆ القول الحقيقى فى رثاء توفيق ـ مصر ١٨٩٢

٣٢ ـ د. على الحديدى

◆ عبد الله النديم خطيب الوطنية (أعلام العرب)

٣٣ ـ على مبارك باشا

◆ الجزء السادس من الخطط التوفيقية

٣٤ ـ د. عمر الدسوقى

◆ فى الادب الحديث دار الفكر العربى مصر ١٩٥٤

٣٥ ـ د. عمر عبد العزيز عمر

◆ دراسات فى تاريخ مصر الحديث

٣٦ ـ فيليب طرازى

◆ تاريخ الصحافة العربية

٣٧ ـ قسطاكى عطاره

◆ تكوين الصحف المصرية ١٩٣٨

٣٨ ـ كلوت بك ترجمة محمد مسعود

◆ لمحة فى تاريخ مصر جزآن ١٩٠٠

٣٩ ـ مارون عبود

◆ مقال في مجلة الكتاب نشر المعارف ١٩٤٨

٤٠ ـ محمد رشيد رضا

◆ تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده نشر المنار جـ ١ و ٢ ١٩٣١

٤١ ـ محمد شفيق غربال وآخرون

◆ الموسوعة الميسرة نشر الدار القومية

٤٢ ـ محمد فريد وجدى

◆ دائرة معارف محمد فريد وجدى

٤٣ ـ د. محمد محمد حسين

◆ الاسلام والحضارة الغربية ط بيروت ١٩٦٨

٤٤ ـ د. محمد محمود السروجى

◆ ثورة ٢٣ يوليو وجذورها التاريخية ـ ط اسكندرية

٤٤ ـ د. محمد محمود السروجى

◆ الجيش المصرى في القرن التاسع عشر

٤٥ ـ محمود ابو رية

◆ جمال الدين الأفغانى حياته وسيرته نشر المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ١٩٦٥

٤٦ ـ د. نفوسة زكريا سعيد

◆ عبد الله النديم بين الفصحى والعامية «القومية» ١٩٦٦

٤٧ ـ نقولا يوسف

- اعلام من الاسكندرية «منشأة المعارف» ١٩٧٠
- مقال من العدد الخامس لسنة ١٩٦٩ من الاديب

٤٨ ـ ولى الدين يكن

- المعلوم والمجهول جزآن القاهرة ١٩٠٩

٤٩ ـ يعقوب صروف

- مجلة المقتطف العدد ١١ من سنة ١٩١٢

الثمن ٥ قروش

هـذا الـكتاب :

يعرف فى ايجاز بنشأة الصحافة العربية فى مدينة الاسكندرية فى الفترة من سنة ١٨٧٣ - ١٨٨٢ م . ويلقى الضوء على الصحف والصحفيين مع تقويم دور كل منهم فى اطار البيئة والظروف التى أحاطت بالصحافة العربية فى المدينة خلال تلك الفترة .

الكتاب القادم :

عالم الميكروبات

تأليف : د. محمد صابر